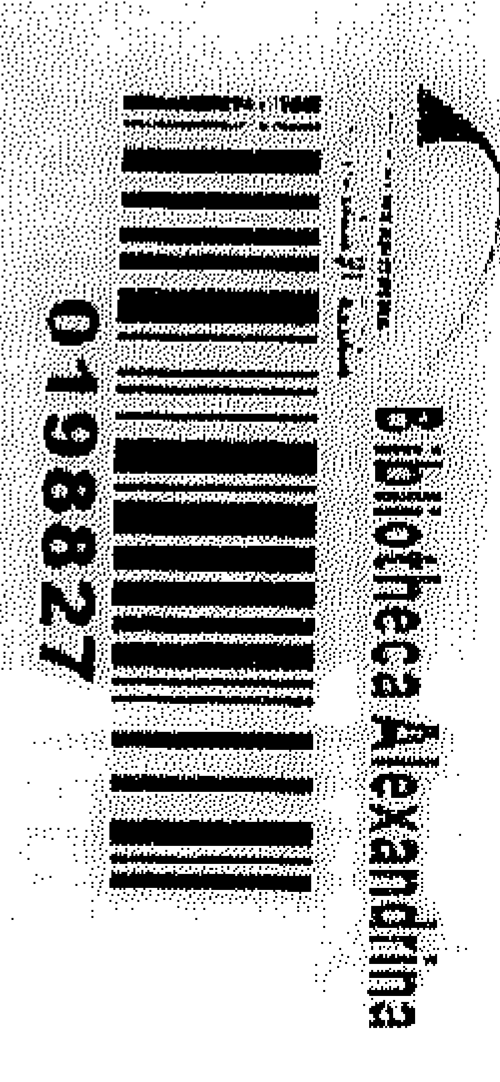
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



السلم والحرب في الإسلام

للأستاذ: عبد العزيز زهران



العدد ١٦٤

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد

موجه اللغة العربية بوزارة التعليم

كتب إسلامية
يصدرها
لس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

السلم والحرب فى الإسلام

للأستاذ عبد العزيز زهران

رف على إصدارها
مد توفيق عويضة

العدد ١٦٤
السنة الرابعة عشرة
١٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٤ هـ
٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٧٤ م


اللّٰہ
جلّ جلالہٗ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـالى :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

(سورة الأنفال)

وقال سبحانه :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

(سورة البقرة)

اهـــداء

الى الذى صنع يومنا العاشر من رمضان ، وعبر بنا المـــكان والزمان .

والى الذين صنعوا لنا معابرنا بالروح والجسد .

والى الزاحفين رافعى راياتنا هنا وهناك ، بكل ما يملك الانسان من عناد واصرار .

والى الذين زلزلوا حياة الآثمين شركاء العدو فى كل مكان .

الى الرجل الذى لم يهرب من قدره : وكان صادقا مع نفسه ، ومخلصا لله ، ووفيا للناس .

الى محمد أنور السادات .

مقدمة

حمدا لك ، يا ربنا : سبحانك وتعاليت : فنحن ـ البشرية ـ أعجز من أن نفى بحقك ولا سبيل أمامنا غير أن نزيد فى طاعتك ، ونزداد من عبادتك .

وصلاة وسلاما منك يا ربنا ، ومن ملائكتك ، ومنا على قائد هذه الأمة وقدوتها رسولك محمد الذى بعثته بالرسالة الخالدة رحمة للعالمين .

وبعد ..

((فالسلم والحرب)) وان كان عنوانا عصريا فى التفكير الاسلامى لكن مفهومه قديم ، فموضوع الحرب قد أخذ مساحة فى تفكير الفقهاء المسلمين وتراثهم ، وتفكيرهم وتراثهم بلاشك منذ وجد كان قائما على الكتاب والسنة ، وهم قد تناولوه تحت عنوان ((الجهاد)) .

وكل مفكر أو باحث أو دارس أينما كان وكيفما كان اذا أراد أن يكون نزيها لابد له ـ وهو يبحث موضوع ((الحرب)) أو ((الجهاد)) فى دائرة الاسلام ـ أن يقف أولا على حقيقة (السلم) أو السلام ، لأن السلام بأوسع معانيه : أمنا وأمانا ورقيا وحضارة ، هو رسالة الاسلام الأولى .

وهناك ملاحظتان حول الموضوع : أولاهما : أن الكتابة نزداد دائما عن (الجهاد) كلما بدا أن عدوانا وقع على المسلمين ،

وتخلفوا عن صد عدوهم فيه . وهنا يأتى دور (الدين) والمفكرين والكتاب والمسلمين .

أما الثانية : فهى أن المسلمين حين يدافعون ويدفعون عن حماهم ويحمون حرماتهم ، ويسجلون ملاحمهم فى البطولة والنصر ، غالباً ما يأتى دور الأدب والشعر .

فالكتابات الدينية عن الجهاد حين تتجدد وتتزايد فانما يعنى ذلك انكماش المسلمين : والكتابات الأدبية غالبـــا ما تكون عكس ذلك تمـــاما .

لذلك فلست أدعى أنى أكتب فى موضوع جديد ولكنى ربما أكون قد كتبت فى هذا الموضوع بعض الجديد ، هذه واحدة .

أما الثانية : فان هذا البحث اختار ـــ كما رجا صاحبه ـــ أن يقدم فى ظل القرآن بصفة خاصة مفهوما مترابطاً أو شبه مفهوم مترابط عن (السلم والحرب) .

ذلك لأن كثيرا ممن كتب فى الموضوع ، اتخذ جانبا واحدا منــــه : ولأن كثيرا ممن كتب اتخذ بعض منه سمت الفقهاء وبعض آخر منه سمت المؤرخين .

والثالثة : أن موضوع الصراع على أرضنا مع اسرائيل والاستعمار قد طغت فيه الكتابات السياسية والاجتهادات الشخصية فى حين أن عدونا الصهيونى استطاع بالكذب والتزوير أن يفلسف أغراضـــه السياسة ، وأطماعه الاستعمارية على أساس الاعتقاد الدينى .

ويرجو هذا البحث بموضوعيته وحياده أن يجدد الفـــكر الدينى ويعمق العقيدة الاسلامية ، لأن اسرائيل ـــ كما ذكرت ـــ توهم أتباعها بأن حربهم مقدسة تقوم على أساس الدين .

وهو أن نتاول ((السلم)) فى الباب الأول فلأنه الأصل فى الرسالة الخالدة على صاحبها أزكى السلام .

وقد اكد هذا المعنى مرة ثانية فى الباب الثانى بتقرير أن « مبدأ الحرب فى القرآن كان ضرورة » .

أما الباب الثالث فهو يرسم الأبعاد لعقيدة الجندى المؤمن ويبين أن « الايمان اقوى أسلحة المعارك » .

ثم يحدث الباب الرابع فيه عن « التربية العسكرية فى القرآن الــكريم » .

« وبعـــد » فهذه محاولة على كل حال فى فهم لبعض آى القرآن الكريم، ولست أدعى أننى بلغت فيها ما أريد .

المؤلف

الباب الأول

السلم دعوة أصيلة في القرآن الكريم

تغمرنى أحاسيس كثيرة ، وأنا أكتب عن (السلم) أو السلام ، لأن السلم عنوان كبير فى تعاليم الاسلام ، ومفهوم بارز فى معتقدات المسلم ، وسلوكه اليومى .

فالله السلم « هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام[1] » ، والقرآن رحمة السماء بأهل الأرض « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام »[2] وعباد الرحمن فى نظر القرآن « الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما[3] » ، « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين »[4] ، والجنة أمل المسلمين ، وموعدهم الباسم دار سلام ، « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم ، بما كانوا يعملون »[5] وتحية الملائكة لأصحاب الجنة « سلام عليكم ، بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[6] .

وتحية الاسلام حين يلقى المسلمون بعضهم بعضا « السلام عليكم ورحمة الله » وهى تحية المسلم لنبيه فى الصلاة « السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، وتحية المسلم لأخوانه ، فى عالم الخير والحق ففى الصلاة أيضا « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » بل ان الاسلام اشتق (اسمه من مادة السلام) ، والاسلام والسلام من مادة واحدة ، وليس الاسلام الا خضوع القلب والروح لنظام الحق والخير[7] .

---

(١) ٢٣ : الحشر
(٢) ١٦ : المائدة
(٣) ٦٣ : الفرقان
(٤) ٥٥ : القصص
(٥) ١٢٧ : الأنعام
(٦) ٢٤ : الرعد
(٧) مصطفى السباعى : نظام السلم والحرب فى الاسلام ص ٧ ، ٨

فالذى يبحث قضية المسلم فى القرآن يؤمن بأنه دستور السلام ، ويتمثل له ذلك فى سلوك الداعية محمد (عليه السلام) كما يتمثل له ذلك فى طبيعة الدعوة نفسها .

سلوك الداعية (صلوات الله وسلامه عليه) :

حين حمل النبى عبء الدعوه أمره الله تعالى بلين الجانب ، والموادعة فى السلوك ، لتتوفر بينه وبين من يدعوهم روح المؤالفة، والوعي والاستجابة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »(١) ، والمختار الهادى (عليه السلام) ليس مكلفا بالزام أحد ، أو حمله حملا على أن يؤمن به ، ولو كان الأمر هو فى نهاينه سوق الناس الى الايمان بدعوة الرسول لكانت مشيئة الله سبحانه وتعالى للناس جميعا من وراء الدعوة ، ومن وراء بلاغها للناس « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »(٢) .

ويظل ذلك سمت الرسول فى تأليف الناس اليه ، واعطائهم حق الاختيار فى قبول الدعوة ، أو رفضها ، ولا يتحول عن ذلك أو يميل ، حتى ولو لم يكونوا هم على نفس المستوى .. حتى ولو خرجوا من دائرة السلبية ، وعدم الاقتناع فتعرضوا له ، أو اتهموا دعوته ، فليس مطالبا فى كل ذلك الا بأن يصفح ويتجاوز ويعرض « ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا »(٣) . « واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان ، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون »(٤) .

---

(١) ١٢٥ : النحل
(٢) ٩٩ ، ١٠٠ : يونس
(٣) ٤٨ : الأحزاب
(٤) ٦٨ ، ٦٩ : الأنعام

ويستمد الرسول صلى الله عليه وسلم ، طاقته فى هذه السياسة من شيئين : الصبر والصلاة « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجرا جميلا » هجرا لا عتاب معه ، « فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس (صلاة الفجر) ، وقبل غروبها (صلاة العصر) ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى(١)» « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم(٢) » .

فالصبر والصلاة معا شعار سلمى ، رفعه القرآن على طريق الدعوة ، يأنس به النبى ، كما يأنس به اتباعه ، فيواجهون عقوق المجتمع ، ومسئوليات العقيدة ، ولا يتبدد من ثباتهم شىء « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . ان الله مع الصابرين(٣) » .

لكن فلولا من ذوى العقيدة الدينية المغرضين ، ينسبون أنفسهم الى موسى ، أو الى عيسى عليهما السلام ، يجذبون الدعوة الجديدة الى مقارنات ومفارقات دينية ، وربما أوعزوا الى المشركين أن يقفوا فى نفس صفهم ضد النبى والدين الجديدين على العرب والجزيرة . فماذا رسم القرآن من سياسته المسالمة لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع الى ربك ، انك لعلى هدى مستقيم ، وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون »(٤) . « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد »(٥) . « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه

---

(١) ١٣٠ : طه
(٢) ٣٥ : الأحقاف
(٣) ٢٥٣ : البقرة
(٤) ٦٧ — ٦٩ : الحج
(٥) ١٥ : الشورى

المصير »(١) ، فهذه الأصوات التى تتصايح فى مواجهة محمد ودعوته زاعمة أنها من تراث موسى أو تراث عيسى ، مستغلة معها سذاجة العرب المشركين لا تخرج محمدا عن طوره المألوف ، ولا تبعد به عن طريق دعوته المرسوم .

نعم !! انه يمضى فى الطريق لا يبالى بشىء ، ولا يلوى على شىء، حتى ولو صدوا الناس عن الدعوه الجديده « ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك ، وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر ، لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون »(٢) .

ودعوه السلم والخير بزعامة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ تتحرك فى كل اتجاه وتأخذ شكلها المميز فى كل موقف ، وذلك بتعاليم القرآن وقوانينه الرشيدة ، فلو فكر مشركو العرب أن يقفوا فى منتصف الطريق بينهم وبين محمد ــ عليه السلام ــ ولو خيل اليهم أن يستدرجوه فى اتجاه أوثانهم ، فموقف القــرآن واضــح لا لبس فيه ، ولا غموض .. ما أثار ثائرة محمد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ ولا دعا الى التصدى للمشركين ، أو تحديهم ولكنه أعلن المعايشة السلمية ، بين عبادته وعبادة الأوثان « قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولاأنا عابد ماعبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد،لكم دينكم ولى دين »(٣) .

وهذه السورة ــ كما يقول ابن كثير(٤) : « سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون ، ــ لأنهم من جهلهم ــ دعوا رسول الله الى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة » .

ونبى الرحمة ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستكمل الحجــة على قومه ، فلا يسكت عن تبصيرهم بعواقب الأعراض عن دعوته ،

فلبس أمر الرسالة عقده ، وقوما ينطوون على هذه العقيدة !!
صحيح أنه « لكم دينكم ، ولى دين » ، ولكن لابد لبكون بلاغ الرسول الى الناس محققا أهدافه ، أن يشمل البشارة والانذار معا « انا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ونذيرا(١) » . والنبى حين ينذر لم يخرج عن طبيعته السلمية ، بل ان الانذار نفسه من دواعى الرحمة بقومه المعرضين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ، قل انما يوحى الى : انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ فان تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ؟ انه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتمون ، وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ، قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون(٢) » .

فرسالة الرسول فى جوهرها وطبيعتها لا تخرج عن التبليغ ، وكان ذلك هو دور نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — عبر آيات القرآن الكريم كلها . نعم فالرسالة من الله وعلى الرسول البلاغ ، وله العصمة من الناس ، أما ان لا يسلم الناس ، ولا يتبعوه فذاك شىء آخر ، لا يسخط النبى ، ولا يستثير عداءه ، ولا يدعوه الى حمل السلاح « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين(٣) » .

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين(٤) » . « وما على الرسول الا البلاغ، والله يعلم ما تبدون ، وما تكتمون(٥) » « وقال الذين أشركوا ، لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شىء ، ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل

---

(١) ٨ : الفتح
(٢) ١٠٧ — ١١٢ : الأنبياء
(٣) ٦٧ : المائده
(٤) ٩٢ : المائده
(٥) ٩٩ : المائدة

الا البلاغ المبين(١) » . « فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين(٢) » ، « قـل أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليـه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين(٣) » « وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول الا البلاغ المبين(٤) » « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ(٥) » « وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول، فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين(٦) » .

« قل انما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ، قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ، قل انى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا ، الا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا(٧) » « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا » — أى على أنه أرسلك وهو شهيد بينك وبينهم. «من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا(٨) » أى ماعليك منه أن عليك الا البلاغ ، « ربكم أعلم بكم » — أى أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق — « ان يشأ يرحمكم ، أو ان يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا(٩) » — أى انما أرسلناك نذيرا — .

وهل هناك أروع من تفوق رسولنا على كل المستويات البشرية اذ يقدم لمكذبيه الصفح والسلام « وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون(١٠) » .

---

(١) ٣٥ : النحل
(٢) ٨٢ : النحل
(٣) ٥٤ : النور
(٤) ١٨ : العنكبوت
(٥) ٤٨ : الشورى
(٦) ١٢ : التغابن
(٧) ٢٠ — ٢٣ : الجن
(٨) ٧٩ ، ٨٠ : النساء
(٩) ٥٤ : الاسراء
(١٠) ٨٨ ، ٨٩ : الزخرف

طبيعـــة الدعوة :

توقفت قليلا عند اختيار هذا العنوان ، وتساءلت : لم لا يكون الأولى منه فى هذا المكان « سلوك المسلمين » ، وهو فى هـــذه الحالة تال لسلوك داعيتهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكننى عدلت عن ذلك ، لأن سلوك الرسول بحتم أن يكون التطبيق العلمى لمبادىء دعوته وتعاليمها ، فقد كان خلقه ــ صلى الله عليه وسلم ــ القرآن وليس كذلك الأمر بالنسبة لجميع المؤمنين به فى كافة الأزمنة والعصور ، فارتضيت لذلك أن يكون العنوان (طبيعة الدعوة) ، وهى فى القـــرآن حجة على المؤمنـــين ، وليس عكس ذلك صحيحا .

منذ بداية ظهور العقيدة لهذا الدين ، وحرية الاعتقاد بها حق مكفول للبشر تقرره العقيدة نفسها فى مبدأ بارز من مبادئها «لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها(١) » .

وقد كان يكفى لسلمية العقيـــدة الاسلامية أن نقرر مبـــدأ حق الانسان فى حرية الاعتقاد ، ولكنها تتجاوز ذلك الى أن تدفع أتباعها لرعاية مشاعر الآخرين ، وبخاصة أصحاب الأديان السابقـــة ، فهم دون غيرهم من المشركين يعز على نفوسهم أن تتهدد عقيـــدتهم ومصالحهم هذه الدعوة الجديدة ، وهذا فى الحقيقة مبعث السياسة التى انتهجها القرآن معهم ، فمجادلتهم تكون بالحسنى ، وعلينـــا نحن ــ المسلمين ــ أن نعرفهم بأخوة الأديان والكتب والرسل ، وأنها جميعا تلتقى حول اله واحد « ولا تجادلوا أهل الكتاب ، الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون(٢) » .

ولعل هذا المعنى نفسه هو الذى دفع القرآن بروحه العالمية

---

(١) ٢٥٦ : البقرة
(٢) ٤٦ : العنكبوت

الى أن يفتح بابا واسعا لكل الأديان السابقة ، وبلتزم على نفسه بضمان حقوقها فى الدين الجديد « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف علبهم ، ولا هم يحزنون(١) » . « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون(٢) » .

ان دعوة القرآن لهؤلاء كانت دعوة عدل وانصاف لا نمييز فيها لجيل على جبل ، ولا لقبيل على قببل ، ومن دعا بها الناس ، كمن قبلها من الناس « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا ، فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون(٣) » .

أية دعوة انسانية هذه التى لا تعطى السلم فقط ، بل تمنح معه البر لغير اتباعها(٤) « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين(٥) » .

ثم ماذا ؟ ان معاملة المسلمين لمخالفيهم اذا كانت تنتهى بالبر — كما رأينا — فانها لم تكن تقل فى أدناها عن العفو والمغفرة « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا ،

---

(١) ٦٢ : البقرة

(٢) ٦٩ : المائدة

(٣) ٦٤ : آل عمران

(٤) أصدر البابا فى القرن الخامس عشر مرسوما ، رخص فيه للبرتغاليين والأسبان أن يقتسموا العالم غير المسيحى مناصفة ، وفوض لهم السلطة المطلقة فى تنصير الناس .... وقد توسع هذا الترخيص فيما بعد اعتمادا على قول المسيح : « الزمهم بالدخول » راجع سيد أمير على : روح الاسلام ج ٢ ص ٨٨ وما بعدها من الترجمة العربية لأمين محمود الشريف .

(٥) ٨ : الممتحنة

من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق » ان محمدا رسول الله مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل « فاعفوا واصفحوا ، حتى يأتى الله بأمره ، ان الله على كل شىء قدير(١) » . « وقل للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون(٢) » .

« وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية ، أو الناحية التطبيقية ، وقد كانت حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — تمثل هذه التعاليم ذاتها ؛ وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين الذين وفقوا الى ايجاد سبيل الى قلوب الكفرة(٣) » .

ولكن لماذا حرص القرآن — وهو آخر الكتب السماوية وأبقاها — على أن يكون دستور سلام ؟ ولماذا اقتضت مشيئة الله أن يكون محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو آخر رسل الله الى البشرية جمعاء — داعية سلام ؟ . ربما أكون قد أدركت بعض الاجابة على ما سبق من سؤال فيما قرأت عن تنبؤات العلماء فى عالم الحرب وأسلحة الفناء .

يقول (كارل جدران هيدن) — وهو عالم متخصص فى الوقاية من الحروب البيولوجية : « ان الأسلحة البيولوجية باختصار هى عبارة عن (ميكروبات) تسبب أمراضا من أنواع معروفة للانسان أو للحيوان أو للنبات ، ويمكن اختيار أى مرض على حسب رغبة المعتدى ، فالطاعون للقتل والابادة ، والحميات الحادة غير القاتلة لشل العدو مؤقتا » ويستطرد (هيدن) قائلا : « انه من الممكن لقارب سريع يسير بالقرب من شواطىء بريطانيا أن يطلق فى دقائق سحبا من الجراثيم الخاصة (بحمى الأرانب) تزن طنا واحدا ، وتكفى لاصابة كل سكان بريطانيا بهذا المرض » .

---

(١) ١٠٩ : البقرة

(٢) ١٤ : الجاثية

(٣) سير توماس . و. أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٧ من الترجمة العربية : للدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين .

ويتنبأ العالمان الفرنسيان (مارسيل فيتزون وميشيل ماجات) — وهما أستاذان فى كليـــة العلوم فى (أورساى) — « بأنه من الممكن أن نكفى عشره (كيلو جرامات) فقط من السموم الكيماوية الى اباده كافة أنواع الحياه على الأرض .

ويختتم العالمان الفرنسيان حديثهما عن الحـــرب الكيماويه ، بتساؤل (بأن العالم لا يستطيع أن يعيش بالعلم والحرب معـــا ، لذا يجب أن يتخلص من واحد منهما) .

وفى مجال (الالـكترونات) والانســـان الآلى نترك الحـــديث (للبرفوسور ميريديث ريتنج) أستاذ الهندسة فى جامعة (لندن) وأحد المتخصصين فى الانسان الآلى وهو يتنبأ بأن الانسان البشرى سيختفى من ميادين الحرب ويحل محله الانسان الآلى فى قيـــاده الطائرات والغواصات ، وفى ميدان القتال كجندى محارب ، وخاصة فى المهام الانتحاريه(١) .

كما أكون قد أدركت بعض الاجابة على ما سبق من سؤال فيما ظهر أخيرا (بنيويورك) من كتاب (تقرير جبل الحديد) الذى أعدته لجنة أمريكيه وخلاصته هى أنه :

« من الصعب تصور امكانية سلام دائم وحتى اذا كان ذلك ممكنا ، فانه نظريا نعاكس بلا جدال مصالح واستقرار المجتمع الأمريكى » لأن (القطاع العام الذى تعاظم منذ الحرب والطلب الحربى حافز اقتصادى لا بديل له) وتختم اللجنة تقريرها المذهل بهذه الخلاصة (الحرب كانت ولا زالت عنصر استقرار اقتصـــادى فى المجتمع الحديث فضلا عن أنها حافز فعال لتقدم البحث العلمى فحرب (الفيتنام) سمحت بتحسين (تكنيك) بتر الأعضاء ، ونقل

---

(١) مجلة العربى (الكويتية) العدد ١٢٢ شوال ١٣٨٨ هـ (يناير ١٩٦٩ م) : كتاب الشهر (اذا لم تكن بسلم) .

الدم ، ودراسه حمى المستنقعات ، وامراض استوائية أخرى .. والحرب فى الجملة نعمة على الانسانية ، وليست نقمة »(١) .

انتهى من كتابة هـــذا الباب وفى نفسى ســـؤالان : متى يؤدى المسلمون الأمانة ـــ كمـــا حملها لهم القـــرآن ، وكما ورثوها عن نبيهم ـــ فى دعوه العالم الى الســـلام ؟ ومتى يستطيع عالم اليوم المتصارع أن يؤمن بضرورة الأخذ بمبدأ السلام فى دعوة القـــرآن والاســـلام ؟ .

---

(١) مجلة (المجله) صحيفة مصورة من جمهورية (ألمانيا الديمقراطية) بتاريخ ١٩٦٨/٨/١١ م .

الباب الثانى

مَبدأ الحرب في القرآن كان ضرورة

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة :

الذى يتابع الخط الذى سارت فيه دعوة القرآن ــ كما سبق ــ يراها قائمه على الاقناع بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والحقيقة أنه يستوى فى ذلك القرآن المكى ، والقرآن المدنى ، كما يستوى فى ذلك منهج الدعوة فى بدايتها ، والمؤمنون بها يتلمسون طريقهم ، أو فى نهايتها ، وقد أصبحوا وفى استطاعتهم أن يشقوا لأنفسهم الطريق ، وأن يلزموا الناس بالمسير فيه .

نرى ذلك واضحا فى الآيات القرآنية ، التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » سورة : النحل آية : ١٢٥ « وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ــ أى اليهود والنصارى ــ لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير » . سورة : الشورى آية : ١٤ ، ١٥ .

وفى الآيات المدنية نجد مثل هذه التعاليم ، وقد نزلت على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير ، وفى ذروة سلطانه « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » سورة النساء آية : ٢٠ « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع الى ربك انك لعلى

هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » سورة الحج آية : ٦٧ ، ٦٨ .

وهذه آيات ننقلها من سورة قيل انها كانت آخر ما نزل من السور « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . سورة التوبة آية : ٦ .

أما الكفار الذين نكثوا عهدهم « واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فصدوا عن سبيله » و « لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة » . « فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون » سورة التوبة آية : ٩ ، ١٠ ، ١١(١) .

المعارضة صعدت ظروف الدعوة :

اذن فمن الذى صعد ظروف هذه الدعوة من مستوى التبليغ ، الذى أمر به قائد الدعوة حسب تعليمات الرسالة « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فمـــا بلغت رسالته »(٢) الى مستوى المعارك والحروب ؟ .

ان المعارضة التى تزعمتها قريش فى البداية قد أخذت بزمام المبادرة منذ اللحظة الأولى ، فواجهت محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالتكذيب والرفض أول الأمر ، ثم صاحب ذلك سـياسة التلويح بالوعود حتى اذا لم تفلح أعقبتها سياسة الوعيد والتهديد ،

---

(١) سير توماس . و. أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٧ من الترجمـــه العربيه : للدكتور حسن ابراهيم وآخرين .

(٢) المـــائدة : ٦٧

فاذا فشلت قريش فى حربها الباردة ، وخسرت وسائلها وأهدافها لجأت الى العنف والتعذيب . تسيم بهما أبناء الدين الجديد .

وهنا ينحاز المؤمنون — حسب تعليمات نبيهم — الى جانب الأمن والنجاة ، ويهاجرون الى الحبشة مرتين .

لكن قريشا تقدر عاقبة خروج هذه الدعوة من أرضها ، وتزنه بميزان المستقبل ، فتتعقب هؤلاء الذين آثروا على معايشتها مرارة الغربة ، ووحشة الفراق .. ويفشل سفراؤها فى العودة بالمهاجرين من الحبشة ، ولم تفلح دعاواهم فى التمويه على ملكها .

أما محمدا — صلى الله عليه وسلم — والذين آمنوا معه فلم يكن مقامهم بمكة خيرا من مقام أولئك اللاجئين بالحبشة ، فلقد حكمت عليهم قريش بالحصار والعزلة أربع سنوات فى شعب بنى هاشم ، وصاروا هم أيضا غرباء ، بين أهليهم وعشيرتهم .

ولعل الحج وحده كان الفرصة الموسمية الوحيدة ، لتنشيط الدعوة ، يتحرك فيها الرسول وأتباعه ، فى ظل الأشهر الحرم ، ومع ذلك فحركة المعارضة كانت تتبعهم وتتعقب سلوكهم ، وحياتهم كلها خطوة فخطوة .

ورغم التدابير التى اتخذتها قريش للحيلولة بين محمد — صلى الله عليه وسلم — وبين أهل المدينة قصاد البيت الحرام ، فانه قدر له أن ينجح فى دعوتهم ، وأن يوافقوا هم فى البيعة له ، تلك التى كانت أساسا فى الارتقاء بالدعوة والداعية والمؤمنين الى مرحلة جديدة .

واذا كانت دعوة المجتمع المكى حينئذ قد شارفت دورها النهائى ، وهو ما يزال — طوال ثلاث عشرة سنة مضت — سادرا فى رجعيته وجموده ، فهل يسلم ساسة هذا المجتمع بهجرة ذلك النبى وأصحابه الى المدينة ، تلك التى كفلتها بيعة الأنصار ؟

لقد كان الخوف من خطر الدعوة يتهددهم ، فى المره السابقة ، وبعض أتباعها يحملونها ، ويهاجرون بها الى الحبشه ، وفى عالم خارج جزيرة العرب كلها أفلا ينهددهم خطر الدعوة هـذه المرة ، ومهجر قائدها وأصحابه وانصاره على أميال منهم ، وفى طـريق أسفارهم .. بالمدينة ؟ .

كانت أعين المشركين على تجربة مقبلة ، وفى نفوسهم ووعيهم تجربة ماضية اذن فلابد من حل جذرى هذه المرة تستقر به قضية الصراع الى قرار .

اغتيال الداعية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وتجميد حركة الهجرة ، التى يقدم عليها أتباعه ، حتي يلقوا مصيرهم فى أحضان القوة والشرك ، مرحلة خاسمة تطور اليها الصراع « واذ يمكر بك الذين كفروا ، ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك »(١) .

ومضى المؤمنون الي الهجرة مستخفين الا القليل منهم ، ويظل القائد فى موضع القيادة كربان السفينة ، يكون آخر من يلبس طوق النجاه ، ثم يصطحب معه رفيقه ، ويهاجر آخـر الأمر ، فيفوت الفرصة على المشركين « الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجـه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصـاحبه : لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وايده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم »(٢) فهل يسدل عند ذلك الستار ، وتنتهى مؤامرات مكة ، وتدابير قريش ؟ .

ان خيبة أمل المشركين فى نجاة محمد ـ عليـه السلام ـ ، وهجرة من هاجـر من المؤمنين ، تنعكس على البقية المؤمنـة المستضعفة ، التى لم تستطع الهجرة الى المدينة ، فيدفع هؤلاء الثمن ، بما يوقعه عليهم أولئك الكفار من وسائل التعذيب والقتل

---

(١) ٣٠ : الانفال
(٢) ٤٠ : التوبة

« مات ياسر فى العذاب ، وأغلظت امرأته القول لأبى جهـل . فطعنها فى قلبهـا بحربة فى يده ، فماتت وهى أول شـهيدة فى الاسـلام(١) » ونفس المصير لقيـه ابو فكيهه بيد أمية بن خلف وأخيه أبى(٢) » .

ولم تكن هذه البقية المؤمنة المحاصره فى مكة معقل الشرك تملك شيئا سوى ضراعتها الى الله « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، وأجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا(٣) » .

قوى الشر على أرض الصراع :

كذلك لم يتوقف المشركون عن التآمر على محمد وأصحابه حتى بعد الهجره الى المدينة مجتمع المسلمين الجديد ، ولا شـك أنهم وجدوا فى يهود المدينة خير عون لهم وشريك .

واليهود من أنفسهم أحسوا انكماش ظلهم ، بالمدينة ، فى وجود محمد ـ عليه السلام ـ ، وفى ظل زعامته السياسية ، رغم ماعقده معهم من اتفاقات ومعاهدات .

انهم كانوا « يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه(٤) » .

« ولمـا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـا معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلعنة الله على الـكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم ، أن يكفروا بما أنزل الله بغيا ، أن ينزل الله من فضله ، على من يشاء

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٠ ط ١٣٠٢ هـ
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع : ص ١٩
(٣) ٧٥ : النساء
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ١٢٤

من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » ، « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله — يعنى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقوه واتبعوه — ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه — يعنى بما بعده — ، وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ، ان كنتم مؤمنين(1) ».

واذن فلنلاق وجها النظر : المشركة واليهودية حول غرض موحد ، هو القضاء على الداعية والدعوة والمؤمنين بها .

وتصبح محصلة البشرية على أرض الصراع ، بعد الهجرة متمثلة فى بقية مسلمة مستضعفة ، صادر المشركون فى مكة حريتهم الدينية ، ويرجون الخلاص ، والهجرة ، ولا يستطيعون .. ، وفى المسلمين بتشكيلهم الجديد فى المدينة ، يتهددهم بالغزو من الخارج مشركو مكه ، بعد ان أصبحوا خطرا على اقتصادها وتجارتها .

أما فى داخل المدينة فهم يواجهون قوى الشر والفتنة من يهود ومنافقين .

ومهما يكن من شىء فان محمدا — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، قد لقوا من حصاد الثلاث عشره سنة ، فى حياه مكة ، وأول حياة المدينة ، التكذيب والافتراء ، والاضطهاد والتعذيب ، والتشريد والحصار ، والتعويق والصدود ، والتآمر على الاغتيال ، والتحرش للقتال .

فأى بشر هذا البشر وأى رسول هذا الرسول ؟ سوى أن يكون محمدا — صلى الله عليه وسلم — يحتمل ويصبر ، حتى تجرى عليه ، وعلى دعوته ، وأتباعها هذه التجارب كلها واحدة واحدة ، فلا يرفع يده — ومعه أصحابه — ليقطع نيار الجريمة ، قبل أن يستشرى سبيل المجرمين .

---

(1) ٨٩ — ٩١ : البقرة

مراحل الدعوة :

واذا كان ــ صلوات الله عليه ــ قد جاهد هو وأصحابه بعد ذلك كله ، الكفار والمنافقين ، فانه وأصحابه قد نكيفوا مع الدعوة ، فى حركة مفتوحة ، سايرت الظروف ، واجتازت كل العقبات على مراحل أربع .

وقد بدأت المرحلة الأولى بمكة ، وكانت طبيعتها نقضى بموادعة المجتمع المكى ، ومسالمته ، لأن المؤمنين الملتفين بالداعية والدعوة فلة مستضعفة ، لا قبل لهم بمكة أو بغيرها ، « واذكروا اذ انتم قلبل مستضعفون فى الأرض نخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره »(١) ، فعليهم أن يكفوا أيديهم « ألم نر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم واقيموا الصلاه وآتوا الزكاة(٢) » ، بل أن يرتفعوا فوق المؤاخذة بالعفو والتسامح ، اذا نزل بهم ايذاء المشركين « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره »(٣) ، ولكن الدعوة مع ذلك لا تقطع أمل أصحابها « حتى يأتى الله بأمره » . « سيهزم الجمع ويولون الدبر »(٤) .

أما المرحلة الثانية ، فقد كانت بعد الهجرة الى المدينة ، وفيها ندعم كيان المسلمين ، وتشكل مجتمعهم ، الذى أمنوا فيه على حرية العقيدة والسلوك ، فأذن الله لأول مره بالقتال للمهاجرين منهم خاصة ، فهم الذين وقع عليهم عدوان قريش ظلما ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق « ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله . . . »(٥) .

---

(١) ٢٦ : الانفال
(٢) ٧٧ : النساء
(٣) ١٠٩ : البقرة
(٤) ٤٥ : القمر
(٥) ٣٨ ــ ٤٠ : الحج

« ويتضح من الآية للذى يمعن النظر أن الاسلام لا يحب القتال ، فالفعل (اذن) مبنى للمجهول ، وفاعله عندما كان مبنيــا للمعلوم هو الله (سبحانه وتعالى) ، وقد بنى الفعل للمجهول ؛ لأن الله لم يرد ــ فيما أفهم ــ أن يذكر اسمه الكريم متصلا بالأذن بالقتال ، ثم ان نائب الفاعل محذوف تقديره : (القتال) ، أى اذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضا ؛لأنه كلمة القتال ، وبدل نائب الفاعل ذكر سبب الاذن هو (بأنهم ظلموا(١)) .

وبعد هذا الاذن للمهاجرين بالقتال تعرضوا لقريش ، ودارت بينهم وبينها الاشتباكات الدامية ، متمثلة فى السرايا ، التى سيرها الرسول ، وانتهت بغزوة بدر .

وفى المرحلة الثالثة صممت قريش على الثأر لبدر ، فأصبح القتال مفروضا على المسلمين جميعا . يستوى فى ذلك المهاجرون والأنصار، لكن على الا يتجاوز قريشا . ومن خالفها من بنى بكر ، وبعض يهود المدينة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » .

وهكذا كان الأمر بالقتال لا يتعدى هؤلاء المعتدين القرشيين ، الى أن وقعت حرب الاحزاب ، التى استطاعت قريش فيها أن تؤلب الجزيرة العربية على اختلاف قبائلها ضد المسلمين ، وتغزوهم فى عقر دارهم . وكان الموقف عصيبا على المسلمين « اذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم(٢) » ومن يومها بدأت المرحلة الرابعة ، وفيها أمر الله بقتال المشركين المعتدين كافة ، كما يقاتلون المسلمين كافة . وأعلنت الحرب العامة ضد جميع المعتدين « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة(٣) » .

فالدعوة الى القتال منذ بدايتها فى العهد المدنى لم توجه مرة واحدة

---

(١) د . أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ١ ص ١٤٢
(٢) الأحزاب : ١٠
(٣) التوبة : ٣٦

ضد المسالم أبدا وانما كان شأنها فى كل مرة أن تتوجه ضد المعتدين(١) « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين(٢) » .

أسباب الحرب :

ونحن اذا راجعنا الحرب فى القرآن نجدها لا تخرج فى أسبابها عن ثلاثة للدفاع عن النفس ضد المعتدين « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين(٣) » .

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون(٤) » « فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ، ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا(٥) » « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير(٦) » « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم(٧) » .

ولرفع الظلم عن جماعة من المسلمين ، يعانونه من دولة غير مسلمة ، يعيشون فى ظلها « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا(٨) » .

---

(١) أنظر مراحل الدعوه فى : التفسير الموضوعى — بحث فى مائدته وحاجة العصر اليه (مخطوط بكلية أصول الدين) لفضيله الدكتور أحمد السيد الكومى أستاذ التفسير .
(٢) الممتحنة : ٨
(٣) البقرة : ١٩٠
(٤) ٩ : الممتحنة
(٥) النساء : ٩١
(٦) ٣٧ : الحج
(٧) ١٩٤ : البقرة
(٨) ٧٥ : النساء

وهناك سبب ثالث وأخير وهو كفالة الحرية الدينية ، وتأمين حقوق أصحابها فى دائرة الاعتقاد « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين(١) » . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا ، فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير(٢) » .

فأى سبب من هذه الأسباب الثلاثة كاف بمفرده لتقرير مبدأ الحرب ومشروعيتها فى نظر الاسلام ، وكل هذه الأسباب ـــ بعد تطبيقها على الواقع والحقيقة ـــ تجتمع لتلزم المسلمين فى كافة أرجاء العـــالم بحرب اسرائيل .

اتهام غير صحيح :

واذن فما أساس الفرية التى اتهمت الاسلام بأن دعوته الى الحرب كانت لفرض نظامه على الناس ؟ مرجع ذلك الاتهام ، كما يقول الكاتب الاسلامى السيد أمير على(٣) : الى أنه :

لم يمض على وفاة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ثلاثون عاما حتى سرى (أى الاسلام) الى قلوب الملايين من البشر ، ولم يمض قرن من الزمان ، حتى دوى صوت صاحب حراء ، فى أرجاء قارات ثلاث ، وشنت ابناء الصحراء شمل الجيوش ، التى جردها الاكاسرة والقياصرة ، لصد (الديمقراطية) الجديدة ، التى بزغت شمسها فى بلاد العرب ، وكان نجاح (الديمقراطية) الفذ ، وتأثيرها العجيب فى نفوس الناس سببا فى اتهام الاسلام بأنه انتشر بالسيف ، وتأيد بالسيف ، باعتباره دين السيف .

ولعل هذا الاتهام كان مرجعه أيضا الى غزوة مؤته وغزوة تبوك ،

---

(١) ١٩٣ : البقرة
(٢) ٣٩ ، ٤٠ : الانفال
(٣) روح الاسلام حـ ٢ ص ٧٨ ، ٩٥ من الترجمة العربية لأمين محمود الشريف.

فهما أول هجوم مسلح ، ضد دولة أجنبية ، وكان الداعى اليهما هو اغتيال الروم لمبعوث رسول الله ، وأكبر الظن أننا ما كنا لنسمع بدعوى انتشار الاسلام بالسيف لو أن المسلمين لم يعاقبوا نصارى الشرق على هذا الاغتيال ، وكانت غزوة مؤته غير حاسمة ، ثم ان حملة تبوك ، وهى حملة ذات صفة دفاعية محضة (كان الغرض منها صد قوات هرقل المحتشدة) لم تثأر لهذه الجريمة الدولية فى حياة النبى ، ولكن خلفاءه لم ينسوها ، فعاقبوا الروم عليها عقابا صارما .

وكان اتساع دولة الروم هو الذى جر المسلمين الى التورط فى حالة الحرب مع الشطر الأعظم من العالم المسيحى ، وفضلا عن ذلك فقد تعذر على خلفاء المسلمين انهاء هذه الحالة عن طريق ابرام المعاهدات ، مع حكام الولايات الخاضعة لسيادة أباطرة الروم الزائلة اذ كان يحدث قبل أن يتمكن المسلمون من اخضاع أحدهم وعقد الصلح معه ، أن يقوم آخر بالاعتداء عليهم ، فيضطرون الى معاقبته ، وبهذه الطريقة وجد المسلمون أنفسهم فى حرب عادلة ضد جميع العالم المسيحى تقريبا .

وربما ساعد على تأييد هذا الاتهام نظرة عجلى ، وغير واعية لبعض النصوص الدينية ، اذ ذهب البعض الى أن معنى (الفتنة) هو (الشرك) فى قوله تعالى من آية الأنفال « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير »، ومن آية البقرة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

وعلى هذا يكون القرآن أمر بقتال المشركين حتى يعتنقوا الاسلام ، وقتال مشركى العرب حتى لا يبقى منهم أحد غير مسلم .

ومما يساند هذا الرأى — فى نظر من رآه — ما ورد فى سورة التوبة(١) من قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر الحــرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل

---

(١) ٥ : الآيه

مرصد ، فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم »

والرد على ذلك أن كلمة (الفتنة) هذه وردت فى القرآن بمعان عديدة ، ليس الشرك منها ، فقد أتت بمعنى الاختبار والابتلاء كما فى سورة « طه »(١) : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه » .

ووردت بمعنى رد المسلمين عن دينهم كما فى سورة البروج(٢) « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق » ، ولقد روى البخارى عن نافع عن ابن عمر فقـــال : « كان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن عن دينه ، وأما قتلوه ، واما عذبوه ، حتى كثر الاسلام ، فلم تكن فتنة » .

وعلى هذا تفهم آية الأنفال والبقرة السابقتين على معنى : « وقاتلوهم حتى ينتهوا من موقفهم العدوانى » وتصبح حرية التدين بدين الله مضمونة ، ولا يفتن عنه أحـــد .

ويتحقق ذلك بواحد من ثلاثة : الاسلام ، أو الصلح ، أو الخضوع والجزية ، ولا يكون بالاسلام وحده ، على أساس تأويل (الفتنة) بالشرك .

أما القول بأن القرآن أمر بقتال المشركين ، حتى يعتنقوا الاسلام ، وقتال مشركى الحرب حتى لا يبقى منهم أحد غير مسلم ، فالدلائل كثيرة ، على رفضه وعدم قبوله .

منها قوله تعـــالى : « وقاتلوا فى ســـبيل الله ، الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . ان الله لا يحب المعتدين(٣) » وهى تأمر المسلمين بقتال الذين يقاتلوهم ، وعدم تجاوز ذلك .

---

(١) ١٣١ : الآية
(٢) ١٠ : الآيه
(٣) ١٩٠ : البقرة

وقوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين(١) » .

وقوله تعالى : « الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين(٢) » « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين(٣) » .

يبقى بعد ذلك ادعاء : أن آية التوبة « فاذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم » . نزلت مؤخرا ، فنسخت ما قبلها من قرآن وسنة(٤) .

لكن من يتفحص آيات التوبة الخمسة عشر الأولى « براءة من الله ورســـوله » ..

الى قوله تعالى :

« ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » يظهر له : أن مناخها واحد ، وهى تعبر فى ترابط متكامل عن الذين نكثوا عهودهم .

والآية الخامسة : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم » .. داخلة فى جملة هذه الآيات ، التى تعنى ناكثى العهود ، بدليل أنها استثنت المستقيمين على العهد ، وأمرت بالاستقامة لهم ، والوفاء بعهدهم، فى الآيتين الرابعة والسابعة .

---

(١) ٨ : الممتحنة
(٢) ٤ : التوبة
(٣) ٧ : التوبة
(٤) هذا ادعاء من رأى أن الآية تساند رأيه فى قتال مشركى العرب حتى يسلموا .

كذلك فان الآية الثانية عشر تجعل قول النسخ غير سليم ، لأنها تأمر بقتال المشركين اذا نكثوا(١) .

ذلك كله مؤيد بأحداث التاريخ ، والسيرة النبويه ، فقد قبل النبى — صلى الله عليه وسلم — الصلح مع المشركين فى الحديبية ولما من الله عليه بفتح مكة كان الأمان الذى منحه أهلها « من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلقها عليه فهو آمن » .

ولو أن الغاية كانت من قتال مشركى مكة هى الدخول فى الاسلام، لما تخلى النبى — صلى الله عيه وسلم — عن قتول غيره ، وقد بقى من أهل مكة على الشرك بضع وثمانون تركهم النبى ، دون أن يتعرض لهم .

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » وأحسن الوجوه على ما رأينا من تعددها فى فهمه هى :

ان الحديث انما يكون نصا فى أن القتال فيه لأجل الادخال فى الاسلام اذا كانت (حتى) فيه تعليليه لا غائية مع أن (حتى) فيه يجوز أن تكون غائية لا تعليلية ، ويكون المراد بالناس فيه المقاتلين للمسلمين بدليل ما سبق من الآيات الواردة فى القتال ، ولا يكون فى الحديث الا الاقتصار على أحد أسباب انهاء القتال بين الفريقين ، وهو الدخول فى الاسلام لا لأن القتال كان من أجله ، بل لأنه لا معنى للقتال بعد خضوعهم له ، وبهذا يكون قتال المقاتلين فى الحديث لأجل اخضاعهم لا لأجل اسلامهم ، فاذا حصل الخضوع بغير الاسلام من الجزية أو نحوها قام مقام الاسلام ، وانتهى به القتال أيضا ، وهذا هو الذى جاء فى قوله تعالى : (آية : ٨٤ سورة النساء) « فقاتل فى سبيل الله ، لاتكلف الانفسك ، وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف

(١) راجع : محمد عزة دروزة : شبهات والرد عليها : مجلة الوعى الاسلامى (الكويت) رجب ١٣٨٨ هـ .

باس الذين كفروا » فقد بين أن الغاية من قتالهم كف بأسهم فقط ، وهذا يكون باسلامهم وبغيره من أسباب خضوعهم . وكذلك قوله تعالى : (آية : ٩٠ سوره المائده) : «فان اعتزلوكم ، فلم يقاتلوكم ، والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » يفيد أيضا انما هو لكف بأسهم ، فاذا خضعوا (اعتزلوا) والقوا السلم ، فلا سبيل لنـــا عليهم .

ولو كان قتالهم لأجل الاسلام لما أمرنا بالكف عنهم لمجرد القائهم السلم واعتزالهم القتال ، بل وجب أن نمضى فى قتالهم حتى يسلموا ، وحينئذ يكون جعل (حتى) فى الحديث غائية لا تعليلية واجبا لا جائزا كما سبق ..

وكأنه قال : «حتى يقولوا لا اله الا الله أو يجنحوا الى السلم(١) .

ومجمل القول : أن غالب النصوص القرآنية أوضحت مع هذه الدعوه أسبابها التى ذكرناها ، فاذا ما ورد بعض النصوص على وجه مطلق فان المطلق فى جميع الأحوال محمول على المقيد .

ولا يبقى بعد ذلك ادعاء لمدع ، مع وجود هذه النصوص القاطعة بأن حروب القرآن كانت ضرورية ، لدفع العدوان فى أى شكل من اشـــكاله .

وتاريخ الدعوة يقطع دائما بأن انتشارها انما كان يزداد ويتسع فى ظروف السلم لا فى ظروف الحرب(٢) .

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : الحرية الدينية ص ٨٨ ، ٨٩

(٢) راجع د. احمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضاره الاسلامية ج ١ ص ١٧٠ وما بعـــدها .

راجع الجهاد فى التفكير الاسلامى للمؤلف نفسه ص ٣٦ ، ٣٧

وراجع عبد الرؤوف عون فى الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٦٧ وما بعدها .

الباب الثالث

الْإِيمَانُ أَقْوَى أَسْلِحَةِ الْمَعَارِكِ

الحرب فى سبيل المبدأ :

كانت حروب القرآن — كما ينص آياته الكريمة — لا تخرج عن أسبابها السابقة(١) ولم يتجه القرآن أبدا لغرض دعوته ، أو اكراه أحـــد عليها .

ومحمد — عليه السلام — ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وكذلك أصحابه حاربوا — حين حاربوا — لتكون كلمة الله العليا ، ولعل ذلك يفسر حرص القرآن ، فى أكثر من موضع ، على بيان : ان سبيل الله هو غاية المسلم من القتال ، أو الجهاد فى كل حال .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم(٢) » ، « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله(٣) » ، « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت(٤) » « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله(٥) » ، « أن الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله . أولئك يرجون رحمة الله(٦) » ، « وأنفقوا فى سبيل الله . ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة(٧) » .

---

(١) هناك من يزعم : أن الغنائم كانت هدفا رئيسيا من أهداف الحرب عند المسلمين ، ويكذب هذا الزعم مقطوع به فى النص الصريح « يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ... » آية ٩٤ : سورة النساء

(٢) ١٩٠ : البقرة

(٣) ٧٥ : النساء

(٤) ٧٦ : نفس السورة

(٥) ٩٥ : نفس السورة

(٦) ٢١٨ : البقرة

(٧) ١٩٥ : البقرة

وسبيل الله — كما أوضحها نبينا (عليه السلام) — هى كلمة الله ودعوته ومبادئه القـــديمة . .

يروى البخارى : أن رجلا جاء الى النبى فقال : يا نبى الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليـــا فهو فى سبيل الله .

وذلك كله لم يغب عن جند الاســـلام ، لأنه جزء من معتقداتهم الدينية ، فهم كانوا يدركون تماما القضية التى يحاربون من أجلها ، أو بلغة عصرنا كانوا عقائديين ، وكانت الرؤيا أمامهم واضحة .

من معـــالم الدعـــوة :

وهم قبل أن يؤذن لهم فى الحرب بمجتمع المدينة عاشوا — قبلا بمكة طوال ثلاث عشرة سنة — على تربية الفرد وتثبيت العقيده .

فمن المعالم الواضحة فى سير الدعوه الاسلامية — وهو فى الوقت نفسه ، أساس بارز فى تفوقها ونجاحها — أنها عاشت حياتين متعاقبتين : الحياه الأولى فى مكة ، وقد اتجهت الى تكوين الفرد ، وقامت على تربيته ، فرسخت فى نفسه المعرفة ، والايمان ، وبعثت فيه ســـلوك الطاعة ، والانقياد فى العبـــاده ، وأوقفته على قوانين الدعوات السابقه ، فمارس الصبر والثبات ، وهو يواجه الذين اضطهدوه ، وعذبوه وأرادوا له الفتنة .

أما الحياه الثانية فى المدينة ، فقد كانت مرحلة تكوين المجتمع ، وتنظيم الدولة ، بما ســـنته من تشريعات ونظم ، وشملت الفرد والأسرة ، والمجتمع والدولة ، فى الداخل والخارج ، سلما وحربا .

وذلك ما يعكسه القرآن فى كل من عهديه : المكى والمدنى .

فتشبع الجندى المسلم بالعقيده ، وايمانه بهـــدف المعركة كان أساسه الأول ، وسلاحه الأعظم ، فى كسب الحروب .

وستظل عقيدة الجندى ، وايمانه بهدف المعركة ، من قوانين النصر الثابتة ، حتى مع تطور العلم (التكنولوجى) اليوم ، فى خدمة الأسلحة والجيوش .

واغلب الظن أن القرآن ، لو طلب من الجنود المسلمين أن يقاتلوا فى سبيل زعامة محمد ، أو فى سبيل التوسع الاقليمى ما انتهت نتائج حروبهم الى الأمجاد التى انتهت اليهـــا .

وقد عبر عبـــد الله بن رواحة ، ذات يوم ، عن ايمانه بقضـــية المعركة ، التى يحاربها ، وهو فى مواجهة جيش الرومان ، الواقف على تخوم بلاده ، متفوقا على جيش المسلمين عده وعتادا ومئونة ، اذ هتف بقومه الحائرين المفزوعين ، قائلا لهم ، فى غزوة مؤتة « ما نقاتل بعدد ولا قوه ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين ، الذى أكرمنـــا الله به ، فانطلقوا ، فانما هى احـــدى الحسنيين : اما ظهور واما شـــهاده(١) » .

ايمان المؤمنين قبل فن المحاربين :

ولقد كان ايمان المؤمنين قبل فن المحاربين ، هو الذى يعصم الجنود ، ويخط طريق النصر ، على طول معارك المسلمين الظافرة ، حتى ولو كانت الجولة الأولى لغير المسلمين .

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين ولا سيما حين تجتمع لهم ميزة العدد والراحة ، حين يختارون مكان القتال .

وهى مشاهدة لا تستغرب ، ولا تخالف المعهود ، فان الدفعة الحيوانية دائما لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد .

---

(١) أنظر حياة محمد ص ٣٦٢ للدكتور محمد حسين هيكل

وانما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الانسان بعد المراجعة للضمير الذى يثوب اليه المرء بعد الامتحان .

وليس من شأن العقيدة أن تكون كالدفعة الحيوانية ونبه عاجلة ، وهجمة سوارة فاشلة ، وانما شأنها أن نحاسب النفس ، ونستعيد قواها ، ونستخرج ذخيرتها من أعماقها ، فهى لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة ، وبخاصة حين يحتاج اليها بعد الجولة الأولى(١) .

والجيوش غالبا ما تتحلل — اذا كانت منتصرة — من مسئوليات الخلق والدين ، فيما تأسره ، أو توفره لنفسها من اللذائذ ، والمحرمات .

لكن جيوش المسلمين فى مبدأ الاســلام ، والصدر الأول بنوع خاص كانت تصدر اليها أوامر القتال مقرونة بطلب التقوى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين(٢) » .

وليس أوضح من رسالة عمر بن الخطاب الى قائده سعد بن أبى وقاص فى هذا المقــام :

أما بعد فانى آمرك ، ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ؛ وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وانما ننصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا ولم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليــكم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله ، وأنتم فى سبيل الله .

---

(١) عبقرية خالد ص ١٣٩ للأستاذ عباس محمود العقاد .
(٢) ١٩٤ : البقرة

والله تبارك وتعالى حين اشترى نفوس جنوده وأموالهم بجنته ، وبشرهم بها ، اختارهم من المؤمنين ، التائبين ، العابدين الحامدبن ، السائحين ، الراكعين .. « ان الله اشـــترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم ، بأن لهم الجنة ، بقاتلون فى سببل الله ، فبقتلون ، ويقتلون، وعدا عليه حقا ، فى النوراة والانجبل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . التائبون ، العـــابدون ، الحامدون ، الســـائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين(١) » .

فقوله تعالى : « التائبون ، العابدون ، الحامدون » .. صفات للمؤمنين ، الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة .

كذلك لا يدافع الله الا عن المؤمنين « ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور(٢) » .

قانون النصر :

والنصر حسب سنة الله ــ دائما لا ينحقق الا فى جانب الايمان ، للذين نصروا الله ، ونوكلوا عليه « ولبنصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر(٣) .. « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم(٤) » ، « أن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون(٥) » .

---

(١) ١١١ ، ١١٢ : التوبه
(٢) ٣٨ : الحج
(٣) ٤٠ ، ٤١ : نفس السوره السابقه
(٤) ٧ : محمد
(٥) ١٦٠ : آل عمران

وكل أولئك — حسب سنة الله أيضا — هم المستحقون للبقاء والخلافة لله سبحانه فى أرضه « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم ، الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنـــا(١) .

والهزيمة حسب سنه الله كذلك انما تبدأ عند المحارب باهتزاز ايمانه ، وضعف اعتقاده ثم يتسرب اهتزاز الايمان ، وضعف الاعتقاد الى السلوك فى المعركة ، وينتهى به الأمر الى التسليم للعدو « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ؛ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا،والله يحب الصابرين. وما كان قولهم الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين(١) » .

ففى الآية الأولى سلبيات ثلاث نفاها الله على عباده المؤمنين العارفين به جل شأنه ، وهم يقاتلون مع أنبيائه : ما وهنـــوا فى ايمانهم ، وما ضعفوا فى لقائهم بالعدو ، وما استكانوا بخضوعهم آخر الأمر له .

وفى الآية الثانية تحديد للايجابيات التى كسب بها هؤلاء المؤمنون النصر وهى ثلاث أيضا : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى آمرنا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .

واذا كانت سلبيات الهزيمة تبدأ أول ما تبدأ بضعف الايمان ، فايجابيات النصر لابد أن تبدأ عكس ذلك .. بايمان قوى ، يدخل أصحابه المعركة فى ظله ، أطهارا أنقياء من الذنوب ، مما يترتب عليه ثبات أقدامهم فى المعركة ، وانتصارهم آخر الأمر على القوم الكافرين .

فالآيتان كأنهما معادلة رياضية : ثلاث سلبيات تقابلها ثلاث

---

(١) ٥٥ : النور
(٢) ١٤٦ ، ١٤٧ آل عمران

اجابات ١ ـ « فما وهنوا » تقابلها : « ربنا أغفر لنا ذنوبنا وأسرافنا في أمرنا » ٢ ـ « وما ضعفوا » تقابلها : « وثبت أقدامنا » ٣ ـ « وما استكانوا » تقابلها : « وانصرنا على القوم الكافرين » . كل مظهر من مظاهر الضعف الثلاثة ، يقابله مظهر من مظاهر القوة(١) .

رجال مؤمنون :

ولهذا كله كانت مواقف البطوله الفذة على مدار معارك الاسلام الأولى من صنع المؤمنين الرجال الذين كان لهم فى رسول الله أسوه حسنة « صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا(٢) » .

لقد نذر رجال من الصحابة (رضوان الله عليهم) أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير ، وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين(٣) .

وعن أنس (رضوان الله عنه) قال : أن عمه أنس بن النضر (رضى الله عنه) غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشركين ، لئن أشهدنى الله عز وجل قتالا للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع .

قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) ، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء (يعنى المشركين) .

---

(١) دكتور عبد العزيز كامل : دروس من غزوة أحد . راجع ص ١٤٧ وما بعدها .

(٢) ٢٣ : الأحزاب

(٣) تفسير أبى السعود على هامش : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للرازى جـ ٦ ص ٧٧٦

ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ (رضى الله عنه) دون أحد ، فقال أنا معــك .

قال سعد بن معاذ : فلم استطع أن أصنع ما صنع ، فلما قتل ، قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة وطعنة رمح ، ورمية سهم ، وكانوا يقولون فيه ، وفى أصحابه نزلت الآية : ((**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه(١)**)) .

ولقد اختبر ايمان الرجال بآبائهم وأبنائهم وأخوانهم وعشيرتهم ، فما لبثوا أن حملوا عليهم بالسلاح وقاتلوهم ((**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا اباءهم ، أو أبناءهم : أو اخوانهم ، أو عشــيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار : خالدين فيها : رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون(٢)**)) .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى : أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله ابن الجراح يوم أحد ، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وأبو بكر دعا ابنه يوم بدر الى البراز ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : متعنا بنفسك ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير ، وعلى بن أبى طالب وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر(٣) .

وحدث فى غزوة بنى المصطلق : أن عبد الله بن أبى زعيم النفاق حاول ان ينفث سمومه بين المهاجرين والأنصار ، على أثر نزاع وقع بين أجيره ، وأجير عمر بن الخطاب ، وقال قولته التى سجلتها سورة المنافقين(٤) ((**لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**)) (يعنى بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله) .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٧٤
(٢) ٢٢ : المجادلة
(٣) الامام محمد الرازى فخر الدين : مفاتيح الغيب المشهر بالتفسير الكبير ج ٨ ص ٣٢٩
(٤) ٨ : الآية

فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولده عبد الله وأخبره خبر والده ، فلما رجعوا الى المدينه ؛ قام عبد الله على باب أبيه بالسيف ، ثم قال له : أنت القائل : لئن رجعنا الى المدينه ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما الله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ؟ والله لن يدخل البيت الا باذن رسول الله .

فصرخ الرجل فى قومه : يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ، حتى اجتمع رجال منهم ، وأخذوا يرجون الابن ، فلم يسمع لهم الا بعد أن يشفعوا فى أبيه برســـول الله ، فما أعاد هذا المنافق الى صوابه الا ولده عبد الله(١) .

وقبل نشوب القتال فى غزوة أحــد التقى عبد الله بن جحش بسعد ابن أبى وقاص فقال عبد الله لسعد : الا تأتى فندعو الله ؟ هلم فلندع الله ، وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه . وليؤمن الآخر على دعاء أخيه .

ثم انتحيا ناحية ، ودعا سعد أولا فقال : يارب : اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده (أى غضبه) ، أقاتله فيك ، ويقاتلنى ثم ارزقنى عليه الظفر حتى أقتله. وآخــذ سلبه .

ودعا عبد الله فقال : اللهم ارزقنى غدا رجلا شديدا بأسه شديدا حرده ، أقاتله فيك ، ويقاتلنى ، فيقتلنى ، ثم يأخذنى . فيجدع (أى يقطع) أنفى وأذنى ، فاذا لقيتك قلت لى : يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يارب ؛ وفى رسولك . فتقول لى : صدقت يا عبد الله .

فتقبل الله من عبد الله بن جحش دعوته ، ولقد قال عنه رفيقه سعد : « كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتى ؛ لقد رأيته آخر النهار وان اذنه وأنفه معلقان فى خيط ، ولذلك أطلق تاريخ الاسلام على

---

(١) راجع الرازى : مفاتيح الغيب ٨ ص ٢١٢ . وعباس العقاد : عبقرية عمر ص ١٩٧ ومحمد سعيد : الجهاد فى الاسلام ص ١١٥

عبد الله لقب (المجدع) ، أى المقطع(١) الاطراف ، فكان هذا التقطيع شرفا له أى شرف ، ووساما له عند ربه أى وســام .

نســاء مؤمنــات :

ولم يقف تأثير الايمان والعقيدة على نفوس الرجال وحدهم ، بل تحرك الى جانبهم النســاء والصبيان .

ولقد دخلت نساء المسلمين ميدان الحرب جنديات عاملات بمؤخره الجيش فى اعالة أخونهن الجنود ، وتمريضهم ، كما زحف بعضهن الى مقدمة الجيش ، وفى مواقع الالتحام ، وفيهن من تبتت فى ساعة ، فر فيها الرجــال .

وقد حدثتنا كتب السنة عن جنديات باسلات حملن راية المرأه فى ميدان الحرب ، وعلى أرض الغزوات .

فعائشة بنت أبى بكر : وأم سليم : والربيع بنت معوذ ، وأم عطية ، ونسيبة بنت كعب ، ونسوة غيرهن من الأنصار شوهدن فى المعارك ، ذوات أدوار بجانب الرجال .

عن الربيع بنت معوذ ــ رضى الله عنها ــ قالت : « كنا نغزو مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، نسقى القوم ، ونخدمهم ، ونرد القتلى ، والجرحى الى المدينة(١) » .

وعن أم عطية الأنصارية : « غزوت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سبع غزوات ، أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم

---

(١) راجع : دكتور أحمد الشرباصى : الفداء فى الاسلام (سلسلة اقرأ) ص ٩٠

(٢) رواه البخارى

الطعام ، واداوى الجرحى ، واقوم على الزمنى (المرضى(١)) وعن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « كان النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يغزو بأم سليم ، ونسوه من الأنصار معه ، فيسقين الماء ويداوين الجرحى(٢) » .

وعن أنس أيضا قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر ، وأم سليم ، وأنهما لمشمرتان « أرى خدم سوقهما (أى الخلاخل) ، تنقلان القـــربـ ، على متونهما ، ثم تفرغانها فى أفواه القـــوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان ، فتفرغانها فى أفواه القوم(٣) » .

وحدث أنس : « أن أم سليم اتخذت خنجرا يوم حنين ، وقالت للنبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ اتخذته ، أن دنا منى أحـــد المشركين بقرت بطنـــه(٤) » .

أما أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية ، فقد خرجت الى غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم وولديها حسب وعبد الله ، وتطلع الرسول اليهم ـــ وهو فى طريقه الى الغزوه فقال لهم : **« رحمكم الله أهل بيت ، بارك الله فيكم أهل بيت »** .

فتوجهت اليه أم عماره ـــ وهى ترجوه الدعاء ـــ قائلة له : يا رسول الله ادع الله ان نرافقك فى الجنة ، فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة ، فتفاءلت بدعاء النبى واستبشرت خيرا ، وقالت: « ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا بعد ذلك » .

ويحدثنا أم سعد بنت سعد بن الربيع عن أم عماره فى هذه الغزوه فتقول : دخلت على أم عمارة رضى الله عنها فقلت لها : يا خالة ،

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى
(٣) رواه الشيخان
(٤) رواه مسلم

أخبرني خبرك يوم أحد فيقول أم عماره خرجت فى أول النهار انظر الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى أصحابه ، والدولة (الغلبة) والريح (النصر) للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف،وأرمى بالقوس ، حتى خلصت الجراح الى .

فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله (أذله الله وأحقره) لما ولى الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **أقبل ابن قمئه يقول : دلونى على محمد ، لا نجوت ان نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب ابن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان .**

ولقد ثبتت أم عماره فى هذه المعركه لا يعتريها ضعف ولا ملل حتى شهد لها الرسول بقوله « ما التفت يمينا ولا شمالا الا رأيت أم عماره تقاتل دونى » .

وأصيبت أم عمارة فى هذه المعركة باثنى عشر جرحا . **ولما رأى الرسول الدم يسيل من جسمها : نادى على ابنها ، ليعاونها قائلا ، « يا ابن أم عمارة ، أمك ، أمك : أعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان » .**

وجرح ابنها فى هذه المعركة ، وسال منه الدم بغزارة ، **فقال له** النبى ـ صلى الله عليه وسلم: « أعصب جرحك؛وسمعت أم عماره **قول الرسول ، وكان معها عصائب قد علقتها فى وسطها ، فاخذت منها ، وربطت لابنها جرحه ، ثم قالت له : « انهض فضارب القوم ».**

فقال لها النبى معجبا : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة » .

ثم شاهد النبى بعد قليل من أصاب ابنها ، فأشار اليه : وقال لها : « هذا ضارب ابنك » فسارعت نحوه ، وضربته فى ساقه :

فوقع على الأرض ، ثم أجهزت عليه ، فقال لها النبى : ((الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينيك(١))) .

وعن عباد قال : (كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن فمر رجل من اليهود ، فجعل يطوف بالحصن — وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين الرسول — صلى الله عليه وسلم — من عهود ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه فى مواجهة العدو . لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا — فلما رأت اليهودى يطوف بالحصن ، قالت : ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود — وقد شغل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت اليه من الحصن ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت الى الحصن(٢) .

أشبال على الدرب :

أما الصبيان فقد ملك حب الجهاد قلوبهم متأسين بآبائهم وأمهاتهم .

وهذا الرسول القائد — صلى الله عليه وسلم — يستعرض جيشه فى وقعة أحد ، ويبصر بين الجند غلمانا صغارا ، فيبتسم لهم ، ويمد يده ، ليربت بها على أكتافهم ، ثم يخرجهم من الصفوف ، ويبشر عليهم بالعودة ، ليدخروا أدوارهم بعد .

---

(١) راجع . الجهاد فى الاسلام ص ٧٢ اصدار جامعة الازهر ١٩٦٧ م ومقالة الأستاذ عبد الله عونه : الجهاد طريق النصر (مجمع البحوث — المؤتمر الرابع) ص ٥٠ وما بعدها ودكتور أحمد الشرباصى : الفداء فى الاسلام ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) أنظر : الجهاد فى الاسلام ص ٧٨ اصدار جامعة الازهر ١٩٦٧ م

لكن هذا الغنى الصغير رافع بن خديج ، يعز على نفسه أن ينتهى أمره الى مثل ما انتهى اليه أمر رفاقه الصغار ، فيحتال على النبي القائد ، ويشب على قدميه ، ليوهم انه واحد من الكبار ، وليس واحدا من الصغار .

لكن عين القائد البصيرة يلحظ ذلك فلا يفوتها ، ويبقيه الرسول في صفه ، ويجيزه بعد ما يعرف أنه من الرماة .

ويتذرع بذلك ترب لهذا الصبي هو سمرة بن جندب الفزارى ، ويبرز بقاءه فى الجيش وأهليته للجندية بأنه يصرع رافعا ، فيجيزه الرسول أيضا(١) .

ويقول عبد الرحمن بن عوف : انى لفى الصف يوم بدر ، اذ التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، اذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه : يا عم ، أرنى أبا جهل ، فقلت يا ابن اخى ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله ان رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه ، وقال لى الآخر — سرا من صاحبه — : مثله .

فأشرت لهما اليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه — وهما ابنا عفراء — وقد استشهدا فى بدر(٢) .

وهكذا فى كل معركة خاضها المسلمون ، وانتصروا فيها ، كانت دائما معجزة الايمان وحدها ترجح كل مزايا العدد والعدة فى جيش أعدائهم ولا أدل على ذلك من أن « النبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب وفرسيين بفرسيين ، وقبائل من السلالة العربية ، بقبائل من السلالة العربية .

---

(١) نقله الأستاذ عبد الله عوسه : الجهاد طريق النصر ص ٧٤ (مجمع البحوث الاسلاميه المؤتمر الرابع) .
(٢) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٨٣

فلا يقال هنا : ان المفضل لقوم على قوم فى المزيه الجسديه أو المزايا النفسيه .. وكل فضل هنا هو فضل العقيده والايمان(١) وصدق الله العظيم « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا . يقاتلون فى سبيل الطاغوت » .

---

(١) عبقريه محمد ص ٣٦ للاستاذ عباس محمود العقاد .

الباب الرابع

التَّرْبِيَةُ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

القرآن الكريم يخطط منهجا متكاملا ، للتربية العسكرية ، ويعد جنوده اعدادا واعيا سليما ، لدخول المعارك .

امتحان العقيـــــدة :

فهو يوطن نفوسهم على أعباء العقيدة ، وما يكلفه أصحابها من محن وخطوب ، ويجعل الدفاع عنها مقياسا صادقا لايمان المؤمنين وثبوتهم . « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأســـاء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرســـول ، والذين آمنوا معـــه : متى نصر الله ؟ الا ان نصر الله قريب »(1) . « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين »(2) . « أم حسبتم أن تتركوا ، ولما يعلم الله الذين جاهـــدوا منكم ، ولم يتخـــذوا من دون الله ، ولا رسوله ، ولا المؤمنين وليجة « أى أتوا بالجهاد مع الاخلاص خاليا من النفاق ، والتودد الى الكفار » والله خبير بما تعملون(3) » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منـــكم ، والصابرين ، ونبـــلو أخبـــاركم(4) » .

---

(1) ٢١٤ البقرة
(2) ١٤٢ آل عمران
(3) ١٦ التوبة
(4) ٣١ القتال

اقنـــاع واقتنـــاع :

وهو يحرك فيهم طاقاتهم الروحية ، ويعبىء مشاعرهم تجاه مسئولياتهم . ق الحمايه والدفاع . وتلك مرحله اوليه احس فيها الجندى المسلم بانه صاحب رساله وحامل امانه .

فاذا كان القتال شيئا كريها على النفس البشرية فان القــرآن الكريم نحى أهدافه الحــربيه عن دائره العواطف البشرية ، التى تتأثر بالحب والكراهيه ، وطلب من الجندى المؤمن أن يسلم بارادته مولاه جل وعلا . فهو وحده الذى يعلم حقيقة الخير ويقوده اليـــه « كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون(١) » .

ويوما ما التقى نفر من أصحاب رسول الله فتذاكروا أى عمـــل أحب الى الله تبارك وتعالى ، ليتقربوا به اليه ، وسارع القـــرآن يهديهم الى أمنيتهم(٢) « يأيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجاره تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبه فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين(٣) » .

وقد اختار القرآن هنا وسيله الهذه ؛ فى اتجاهه الى الاقناع بتصوير مهمة المؤمنين « تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهـــدون ى

---

(١) البقرة : ٢١٦

(٢) السيوطى :لباب النقول ق أسباب النزول على هامش تفسير القرآن العظيم ص ١١٤ ، ١١٥ وراجع ص ١٩٥ من تفسير العلامه أبى السعود على هامش التحر حـ ٨

(٣) الصف : ١٠ ــ ١٣

سبيل الله » فى صورة التجارة التى هى أبرز وسـائل العـرب فى العيش والحياة ، ورأس المال واضح ملموس فى الآية الثانيـة ، ومكاسبهم مضمونة مؤكدة فيما بعدها .

ولا يخفى ما للايمان بالله ورسوله من آثار فى حياة المجاهدين فى سبيل الله ، وهو ما حـرصت الآية الكريمة على تأكيده ، قبـل تحميلهم مسئولية الجهاد فى سبيل الله .

بل ان توجيه المؤمنين الى الجهاد فى موضع آخر من القرآن الكريم ، لا يحتاج فى الاقناع به الى أكثر من مجرد مقارنة بين من يقعد بلا عذر عن الجهاد ، وبين من يجاهد ، وتلك قضية يحكم فيها العقل على الفور دون تريث أو تدبر « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله ، بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »(1) .

هـذا هو مستوى الجنـدية :

وجنود المسلمين يدخلون المعارك متميزين على أعدائهم بالمبدأ والعقيده لأنهم ، « يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت(2) » (أى طاعة الشيطان) .

لذلك فقد طلب منهم القرآن أن يتجردوا فى حبهم لله ، وللرسول، وللجهاد فى سبيل الله ، عن كل شوائب المجتمع وقيوده مهما تكن قيمتها البشرية أو المادية « قل ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم، وأزواجكم ، وعشـيرتكم ، وأمـوال اقترفتموها (اكتسبتموها)

---

(1) النساء . ٩٥

(2) النساء : ٧٦

وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا (فانتظروا ما يحل بكم من عقاب) حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين »(١) .

وهل يبقى بعد ذلك شيء يملك على الجندى المسلم قلبه أكثر من حب الله ، والرسول ، والجهاد فى سبيل الله ؟ وهل هناك ما يصرف الجندى عن المعركة حينئذ ويدعوه ليشغل باله شيء سواها فى الحياة الاجتماعية التى خلفها من ورائه ؟

وأكثر من ذلك نرى القرآن يسامى بالجندى المسلم حتى يصفى كل علاقاته الاجتماعية ، ويبيع دنياه ، فيقاتل أعداء الله وأعدائه « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون(٢) (يبيعون) الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما »(٣) .

وفى غزو الروم فى (تبوك) صدرت أوامر القرآن بتحريك كل الطاقات البشرية ، وتجنيد كل الامكانات المادية ، للجهاد فى سبيل الله ، مهما تكن أحوال المؤمنين الصحية أو النفسية أو المادية « انفروا خفافا ، وثقالا (كهولا وشبابا فى العسر واليسر) وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »(٤) .

وحينما تخلف بعض المؤمنين عن مسيرة الغزو فى هذه المعركة مؤثرين حياة الظل والثمار عاتبهم القرآن على ذلك وآخذهم « يأيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم : انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض (تكاسلتم وملتم الى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار) أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل(٥) » .

---

(١) ٢٤ : التوبة

(٢) اخترت أن تكون (يشرون) بمعنى يبيعون وهو أحد وجهين فى معنى الكلمة عند المفسرين .

(٣) ٧٤ : النساء

(٤) ٤١ : التوبة

(٥) ٣٨ : التوبة

ومتاع الدنيا فى الآخرة كما شبهه الصادق الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (ما الدنيا فى الآخرة الا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بما ترجع) وأشار بالسبابة(١) .

وفى هذه الغزوة تخلف عن الرسول أبو خيثمة مالك بن قيس ، وعاد الى أهله ، فوجد كلا من زوجتيه قد رشت عريشها ، وبردت له الماء ، وهيأت له الطعام ، فنظر الى كل منهما نظرة اعراض وزهادة ، ثم قال : رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الضح (الشمس) ، والريح ، والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، وفى ماله مقيم (ما هذا بالنصف ؟ والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ثم خرج مسرعا الى رسول الله يطوى الأرض الى (تبوك) طيا .

الأمة كلها تحارب :

ولا يفوتنى فى لقاء الآية الكريمة : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ... » ان أذكر رأى أحد معاصرينا(٢) العسكريين فى فهمها ، اذ عقد عنها حديثا بعنوان (الحرب الاجماعية) أوضح فيه : ان الحرب الاجماعية « هى حرب الأمم ضد الأمم وبها تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية فى خدمة الحرب » .

ثم يقول : « ان الحرب الاجماعية التى طبقتها ألمانيا وايطاليا وروسيا فى الحرب العالمية الثانية ليست جديدة ، فقد طبقها المسلمون قبل أربعة عشر قرنا خلت ، ولكن هناك فرقا واحدا بين حرب الأمم الحديثة وحرب المسلمين قديما ، هذا الفرق هو : ان حرب المسلمين حرب دفاعية غايتها نشر الاسلام ، وتوطيد أركانه ، فهى حرب الفروسية بكل ما فى الكلمة من معان ، لذلك

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ حـ ٢

(٢) الزعيم الركن محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢٧٧

فقد كان المسلمون كلهم جنودا ، وكانت أموالهم كلها لادامة هؤلاء الجنـــود » .

بنـاء القوات المسلحة :

وتوجه القرآن باهتمـــامه البالغ الى بناء الجيش ، واعـــداد أسلحته القتال ، فربى المؤمنين على تمويل المحاربين ، والاستعانة لمـــا يسمى الآن باقتصاديات الحرب « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم(١) » .

بل ان القرآن ليوبخ الممسكين عن الانفاق في سبيل الله ، ويوجه النظر الى أن كل ما في أيدي الناس سيغادرونه لا محالة ، والى أن مصير السموات والأرض جميعا سيعود الى المولى الخالق عز وجل « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير(٢) » .

ولا يخفى وجه التفاضل بين من أنفق وقاتل قبل فتح مكة ، ومن أنفق وقاتل بعد فتحها ، وذلك مما يؤكد دقة الحساب والمجازاة .

وقد قالوا : ان قوله تعالى « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل .. » نزل في أبي بكر ، وهذا دليل على تفضيله ، لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق على نبي الله — صلى الله عليـــه وسلم — وأول من أظهر الاسلام بسيفه مع صاحبه(٣) .

وكان سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو القائد

---

(١) ٢٦١ . البقرة
(٢) ١٠ : الحديد
(٣) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ص ٢٣٩ وما بعدها جـ ١٧

الأعلى للجبش يوجه تعليماته الصريحة لبنـــاء الجبش ، ونجهيز السـلاح .

ففى روايه البرمدى والنسائى بسندهما عن خريم س مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتب له بسبعمائه ضعف) .

وفى روايه البرمدى والبخارى ومسلم عن زيد س خالد الجهنى ـ رضى الله عنه ـ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا) (فاب عنه فى) (شئونه) فى سبيل الله فقد غزا) .

وفى رواية البخارى بسنده عن أبى هريره ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانًا بالله ، وتصديقا بوعده ، فإن شبعه وريه ، وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامه) .

وهل يغيب عن المسلمين اعداد الأسلحه وصناعتها والتدريب عليها ، وفيما نزل على نبيهم ـ ويتلونه فى صلاه ، وفى غير صلاة ـ أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا(١) » .

رحم الله الامام الرازى فهو يقول(٢) : أقسم الله بفرس الغازى، لما فيه من منافع الدنيا والدين . وفيه تنبيه على أن الانسان يجب أن يمسكه لا للزينه والتفاخر ، بل لهذه المنفعه ، وقد نبه الله تعالى على هذا المعنى فى قوله : « والخيــل والبغال والحمير لتركبوها وزينه » فأدخل لام التعليل على الركوب ، وما أدخلها على الزينه .

نعم !! ولابـد أن يكونوا قد استجابوا لله تعـالى وهو يأمرهم

---

(١) ١ ـ ٤ . العاديات

(٢) فى تفسيره . مفاتيح الغيب جـ ٨ ص ٦٥٨

باعداد ما فى وسعهم من وسائل التسليح فى عصرهم حبلا وعير خيل « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم (المنافقين) لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون »(١) .

وعن عقبة بن عامر أنه قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول — وهو على المنبر : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى(٢) .

وما زالت ولن تزال كلمه الصادق المصدوق سلام الله عليه : (الا ان القوه الرمى) ، أمنية حكيمة ، ولو فصل عنها الزمن من القرون بما فصل ؛ فمع تطور أسلحة القتال ، وتعدد مخترعات المعارك فى البر والبحر والجو ، فهى أبدا لم تعد (الرمى) .

ولست أخال المسلمين اليوم غافلين عن متطلبات العصر فى تحقيق وسائل القوة التى طالبهم بها القرآن فى قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وهى قوة العصر الذى يعيشونه ، ولاشك أنها قوة تتجدد وتتغير بين آن وآن ، فعليهم كذلك أن يحققوها باستطاعتهم التى يجب أن تجدد وتتغير بين آن وآن .

فما كانت رسالات الرسل ، وكتبهم ، ومعجزاتهم ، وكل قيم الحق والخير ، التى عرفها الناس بمغنية فى اقرارها بين البشر عن الحماية والدفاع عنها بقوة ، ولنسمع : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد ؛ فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ، ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز(٣) » .

أنزل الحديد ليعلم من ينصره ، وليس بعد هذا زيادة أو توضيح .

---

(١) ٦٠ : الأنفال .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٢١
(٣) ٢٥ : الحديد

فالقرآن الكريم ربى نفوس الجنود ، وحبب اليهم الجهاد ، وكره اليهم القعود ، وقادهم الى مستوى عسكرى فذ قد لا نشوبه شائبة من دنيا الناس ، وأهاب بالمؤمنين جميعا أن يبادروا ببناء قوانهم المحاربة ، وأن يجهزوها بكل ما وسعهم من قوة وسلاح .

من أخـــلاق الجنود :

أما سلوك الحنود داحل الجبش فلا بد أن يقوم على الطـاعة لقبادنهم ، وبخاصة فى أوقات اللقاء والقتال « ... فأولى لهم . طاعة وقول معروف (الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا) فاذا عزم الأمر (أى جد الجد وحضر القتال) فلو صدقوا الله لكان خـبرا لهم(١) » .

واطاعة القائد واجبه ما لم تكن فى معصية ، اذ لا طاعة لمخلوق فى معصة الخالق . وعن على رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ سرية ، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فعصوه فى شىء فقال : أجمعوا حطبا ، فجمعوا ، ثم قال : أوقدوا نارا ، فأوقدوا ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن تسمعوا وتطيعوا؟ قالوا : بلى ، قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : انما فررنا الى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من النـــار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه ، وطفئت النار ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال : لو دخلوها لم يخرجوا منها أبدا) : وقال : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وانما الطاعة فى المعروف) .

والطاعه اذا لم ترتبط فى نفس الجنود وتماسك بالصبر ، فانها ستبدد وتلاشى . ولقد كان الصبر فى (بدر) معركه النصر الأولى سلاح المقاتلين المسلمين ، فى مواجهه العدو ، الذى يفوق عـــدة وعـــددا ..

---

(١) محمد : ٢٠ ، ٢١

وتوجيهات القرآن فى هذه المعركة كانت تفـرض على الجنود الصبر ، وترتب عليه الغلبة والنصر « ... ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائه يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائةصابره يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ، والله مع الصابرين »(١) .

فالجندى المسلم الواحد كان مطلوبا منه أول الأمر أن يواجـه فى المعركة عشره جنود من أعدائه ، والصبر لقضاء الله فيهم وعليه ، ثم خفف الله عنه ، وطلب منه الصبر والثبات فى قتال اثنـين من أعـدائه .

وعن ابن عباس فى هذه الآيه قال : كتب عليهم ان لا يفر عشرون من مائتين ، ثم خفف الله عنهم فقال : الآن خفف الله عنكم ، وعلم ان فيكم ضعفا ، فلا ينبغى لمائه أن يفروا من مائتين(٢) .

وربنا سبحانه وتعالى ساق لنا المثل ، وقدم لنـا التجربة فى تاريخ الحروب ، ففى قصه الصراع القديمة بين طالوت وجالوت كتب الله النصر والغلبه للذين لاذوا بالصبر « .. كم من فئه قليلة غلبت فئه كثيره باذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا افرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم باذن الله »(٣) .

وفى بعض الأوامر الأخرى التى تخاطب الجنود المؤمنـين يربط القرآن بين الطاعة والصبر ، فيهما يصان وحده الجيش وقوته : « وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشـلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين(٤) » .

---

(١) ٦٥ ، ٦٦ : الانفال
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٢٤
(٣) ٢٤٩ ، ٢٥٠ : البقره
(٤) ٤٦ : الانفال

ويتحدث ابن قتيبة(١) عن أثر الصبر ، الذى تسلح به المسلمون فى مواجهة الروم ، وينقل لنا عن ملكهم وأصحابه هذا الحوار :

قدمت منهزمة الروم على هرقل بأنطاكية فدعا رجالا من عظمائهم فقـــال :

ويحكم ، أخبرونى ما هؤلاء الذين يقاتلونكم ؟ أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا :

بلى ــ يعنى العرب ــ .

قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن .

قال ويلكم : !! فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا .

فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون .

قال : أخبرنى .

قال : اذا حملنا عليهم صبروا ، واذا حملوا علينا صدقوا ، ونحن نحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم فما بالكم كما تصفون ؟ وهم كما يزعمون .

قال الشيخ : ما كنت أراك الا وقد علمت من أين هذا ؟

قال له : من أين هذا ؟

قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الأرض .

---

(١) عيون الأخبار (المجلد الاول) ص ١٢٧

قال : صدقتنى ، والله لأخرجن من هذه القرية مالى فى صحبتكم خير ، وأنتم هكذا .

وكل رجال الجيش أمنـــاء على أسرار الحيـــاة العسكرية بكل ما تحتويه من وسائل التسلح أو خطط الدفاع أو الهجوم .

ومسئولية كل فرد فى ذلك ، ليس مبعثها التقاليد العسكرية فحسب ، ولكنها نابعة من عقيدة الجندى المسلم ، الذى حمل أعباءه ، معاهدا الله ورسوله ، وأمة المسلمين ، غير خاضع لأية مؤثرات اجتماعية أخرى « يأيها الذين آمنوا ، لا تخونوا الله ، والرسول ، وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون » (١) .

وفيما يروى فى نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ بعث أبا لبابة بن عبد المنذر الى اليهـــود فى غزوة بنى قريظة ، لينزلوا على حكم الرسول ـــ فاستشاروا أبا لبابة ـــ وقد كان حليفا لهم فى الجـــاهلية ، فنصحهم بالاستجابة لحـــكم الرسول ، وأشار بيده الى حلقه تعبيرا عن حكم رسول الله ، الذى هو الذبح ، وفطن فيما بعد : ان اشارته هذه خيانة لله ولرسوله ، فحلف لا يذوق غذاء قط حتى يموت ، أو يتوب الله عليه ، وانطلق الى مسجد المدينة ، فربط نفسه فى سارية منه ، ومكث كذلك تسعة أيام ، حتى سقط مغشيا عليه من الجهد ، فأنزل الله توبته على الرسول ، وجاء الناس ـــ يبشرونه ، وأرادوا أن يحلوه ، فحلف لا يحله أحد الا رسول الله بيده ، حتى اذا جاء الرسول قال له : يا رسول الله ، انى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة فقال له : « يجزيك الثلث أن تصدق به(٢) » .

الموت فى اعتقاد الجندى المسلم :

واذا خرجت قوات الجيش لتطلب العدو ، أو لتلقاه فى معركة ،

---

(١) الأنفال : ٢٧

(٢) راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ والرازى مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٥٣٥ ، وابو السعود على هامشه نفس المكان السابق .

فما من أحد منهم يفزع أو يخاف ، أو يتسرب اليأس الى نفسه ، لأن الموت فى اعتقاد الجندى المسلم حقيقة من حقائق الكون ، وقدر مكتوب لا عاصم منه ، ولا مفر . « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور(١) » « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخـــور » (٢) .

ولقد علم أن الموت لا يأتى بشرا من الناس قبل حينه ، كما لا يستطيع بشر من الناس أن يمد فى أسباب حياته شهقة واحدة ، أو زفره واحـــده « فاذا جـــاء أجلهم لا يســـتأخرون ســـاعة ، ولا يستقدمون(٣) » وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتـــابا مؤجلا »(٤) .

فاذا اتجه القرآن الكريم ليناقش أعمار المقاتلين وآجالهم قرر أن الموت نهاية مقضى بها على الناس جميعا ، من كان منهم على أرض المعركة يقاتل ، ومن كان منهم متحصنا لها ، ومبتعدا عنها « ... وقالوا ربنا ، لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة »(٥) .

وما زالت كلمة خالد بن الوليد ـــ وهو على فراش الموت ـــ مسموعة فى آذان الأجيال « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر الا وفيه ضربة ، أو طعنة ، أو رمية ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

---

(١) ١ ، ٢ الملك
(٢) ٢٢ ، ٢٣ : الحديد
(٣) ٦١ : النحل
(٤) ١٤٥ : آل عمران
(٥) ٧٧ ، ٧٨ : النساء

مفهوم الموت فى نظر الأعداء :

والمنافقون الذين انتهزوا فرصة الهزيمة فى غزوة أحد ، وارادوا أن ينالوا من خطة الجيش فى هذه المعركة ، ويهزوا ثقة الجنود فى قادتهم العسكرية ، ويسعوا عن أنفسهم الرأى والتبصرة بقولهم: « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » أجابهم القرآن برده المسكت « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم(١) » ، فعبد الله بن أبى لمـــا شاوره النبى — صلى الله عليه وسلم — فى هذه الواقعة أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ولكن الصحابة — وكانت أغلبية الرأى معهم — ألحوا على النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أن يخرج الى المشركين ، فغضب عبد الله بن أبى من ذلك ، وقال : عصانى وأطاع الولدان .

ثم لمـــا كثر القتل فى بنى الخزرج الذين هم قومه — وكان قد رجع بمن معه ، ولم يشترك فى المعركة — قيل له : قتل بنو الخزرج فقال : هل لنا من الأمر من شىء يعنى أن محمدا لم يقبل قولى حين أمرته بأن يسكن فى المدينة ولا يخرج منها(٢) .

ونظير ذلك ما ذكره الله تعالى عن المنافقين فى هذه المعركة أيضا « الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا !! قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت (ان كان القعود يسلم به المرء من القتل والموت) ان كنتم صادقين(٣) » .

ولم تقف التربية القرآنية عند حدود مناقشة المنافقين فى تجربة (أحد) العسكرية ، بل توجهت الى التحذير من وساوس المشركين وحالت بين النفس المؤمنة ومن نظرة المشركين ، وتقويمهم للموت أو القتل اذا وقعا لاخوانهم فى الأسفار والحروب « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض،

---

(١) ١٥٤ : آل عمران
(٢) راجع الرازى : مفاتيح الغيب ص ١٠٦ ص ٣
(٣) ١٦٨ : آل عمران

(سافروا للتجاره ونحوها) ، أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسره فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير »(١) .

الاستشهاد أمل ورجاء :

لهذا كله فالجيش المؤمن بنهياً لمعركة القتال ، ويدخلها فى ظل مفاهيم لا تتوفر لأعدائه .

والجندى المسلم يحب الموت حب أعدائه للدنيا ، وهو يرى المعركة أملا يفتح أمامه الباب لحياه أخرى يحياها فى ربوع الجنة .

وحين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم يوم بدر وقف القائد الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول لأصحابه : « قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض » .

فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : نعم .

فقال : بخ بخ .

فقال : (ما يحملك على قولك بخ بخ ؟)

قال : رجاء أن أكون من أهلها .

قال : (فانك من أهلها) .

فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، انها لحياه طويله ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه(٢) .

---

(١) آل عمران : ١٥٦

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٢٤

ولقد سبق للجندى المؤمن أن تعاقد على الجنه مع خالقه ومولاه عز وجل « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنه ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا ، فى التوراه والانجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم(1) » .

وهذه الآية مشتمله على عشره تأكيدات :

فأولها : قوله : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم » فيكون المشترى هو الله المقدس عن الكذب والخيانه ، وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد . والثانى : انه عبر عن ايصال هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ، وثالثها : قوله : « وعدا » ووعد الله حق ، ورابعها — قوله : « عليه » وكلمة (على) للوجوب . وخامسها — قوله . « حقا » وهو التأكيد للتحقيق . وسادسها — قوله : « فى التوراه والانجيل والقرآن » وذلك يجرى مجرى اشهاد جميع الكتب الالهية ، وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبايعه ، وسابعها — قوله : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ وهو غاية فى التأكيد ، وثامنها — قوله : « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به » وهو أيضا مبالغه فى التأكيد . وتاسعها — قوله : « وذلك هو الفوز » وعاشرها — قوله : « العظيم(2) » .

ولذلك قال الصادق — عليه الصلاه والسلام — . « ليس لأبدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها » .

ويقول الحسن : اسمعوا والله بيعة رابحه ، وكفه راجحة بايع الله بها كل مؤمن ، والله ما على الأرض مؤمن الا وقد دخل فى هذه البيعة(3) .

---

(1) 111 : التوبه

(2) الرازى مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٧٤٥ ، ٧٤٦

(3) المرجع السابق : ص ٧٤٤

ليس الاستشهاد موتا :

ولقد آمن الجندى المسلم أنه ان قتل . فقتله فى الحقيقة ليس موتا ، وانما هو حياة ... حياة أسمى وأخلد عبر اليها ، وانتقل « ولا تقولوا لمن يقتـل فى سبيل الله أموات بل أحياء ، ولـكن لا تشعرون »(١) .

وفى صحيح مسلم : ان أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى الى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ربنا ، وأى شىء نبغى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا : نريد أن تردنا الى الدار الدنيا ، فنقاتل فى سبيلك ، حتى نقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الجهاد — فيقول الرب جل جلاله : انى كتبت أنهم اليها لا يرجعون(٢) .

وروى الامام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما أصيب اخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عزوجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وان الله لا يضيع أجر المؤمنين »(٣) .

---

(١) ١٥٤ : البقرة
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ١٩٧
(٣) ١٦٩ — ١٧١ : آل عمران

ثبات حتى النصر او الشهادة :

وتنص أصول التربية العسكرية فى القرآن على أن كل جندى فى الجيش مطالب بالثبات على أرض القتال « يأيها الذين آمنوا . اذا لقيتم فئة فاثبتوا . . »(١) .

والله تبارك وتعالى يحب من يثبت فى القتال ، ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٢) » .

وكل قتال للاعداء لابد أن تنتهى غايته دائما الى أحد أمرين ، لا ثالث لهما : اما أن يعيش الجندى منتصرا أو أن يموت شهيدا « قل هل تربصون بنا (تنتظرون منا) الا احدى الحسنيين (شهادة أو ظفر بكم) ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون(٣) » .

بين الفرار والانسحاب :

أما الاحتمال الثالث وهو فرار الجندى من المعركة منهزما ، يؤثر حياته ، على ما سواها ، فقد حرمه القرآن ، وهدد عليه ، وجعل جزاءه فى الدنيا غضب الله ، وفى الآخرة عذاب جهنم ، « يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ، فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبرة الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير(٤) » .

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن ابى هريره (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

---

(١) ٤٥ : الانفال
(٢) ٤ : الصف
(٣) ٥٢ : التوبه
(٤) ١٥ ، ١٦ : الأنفال

(اجتنبوا السبع الموبقات) قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : (الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، واكل الربا ، واكل مـــال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقـــذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .

واذا كانت الآية السابقة نهت عن الفرار ، وهددت بشأنه ، فقد اباحت الانسحاب على اساس ان يكون داخلا فى حدود الخطة أو فن المعركة الا متحرفا لقتال ، أو أن يكون دافعه تجمع الجنود لعوده الهجوم او الدفاع أو متحيزا الى فئة .

وفى احساس هذه التربية نرى أن ذل الهزيمة وعارها ، لا يمكن ان يلحقا بالجندى ، لأنه يطلب النصر بالشهاده ، فاذا لم ينتصر نال الشهاده فمن اين يأتيه الذل والعار ؟

فى المعمعة صلاة ودعاء :

واذا كان قتال المؤمنين ـ كما مر بنا ـ فى سبيل الله وقتال أعدائهم فى سبيل الشيطان ، فمن مقتضيات ذلك أن يكون الاتصال قائما والطريق مفتوحا على أرض القتال بينهم وبين ربهم ، واهب النصر ، الذين يقاتلون فى سبيله ولهذا كان كل من الصلاة والدعاء سلوكا ممتزجا بسلوك القتـــال .

وما أحوج الجندى الى الصلاة وقت الشدة ، حتى اذا لم يكن يؤديها وقت الرخاء وقد رخص القرآن فى قصرها وبين كيفيتها فى الحرب « واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، أن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ، واذا كنت فيهم ، فأقمت لهم الصلاه ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فاذا سجدوا ، فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى ، لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم ، وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ؛ ان تضعوا أسلحتكم ، وخذوا

حذركم ، ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا ، فاذا قضيتم الصلاة ، فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ... »(١) .

ولقد طلب الله سبحانه من الجنود المؤمنين أن يكثروا من ذكره فى لقائهم بأعدائهم « يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا ، لعلكم تفلحون(٢) » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتظر فى بعض أيامه ، التى لقى فيها العدو ، حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال : (يأيها الناس ، لاتتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : (اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب . اهزمهم ، وانصرنا عليهم) .

وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى : « أن عبدى كل عبدى ، الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه(٣) » .

ورووا أدعية كثيرة فى القتال منها : « اللهم أنت ربنا وربهم . نواصينا ونواصيهم بيدك ، فاقتلهم واهزمهم(٤) » .

من أخلاق القواد :

ومع أن طاعة الجنود لقائدهم ـ فيما رسمته تربية القرآن ـ واجبة ، فان القرآن لا يتصور القائد معصوما من الخطأ ، خاصة وأن قرارات السلم والحرب تؤثر لمداها البعيد ، فى مصير الجيش والأمة بأسرها .

---

(١) النساء : ١٠١ ـ ١٠٣
(٢) الأنفال : ٤٥
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣١٦
(٤) الألوسى : روح المعانى ح ٣ ص ٢٤٥

ولذلك كان القائد ملتزما بالمشورة ، يبحث عن وجهها الصائب ، بين ذوى الرأى فى جنده .

وما من غزوة اقدم عليها محمد — صلى الله عليه وسلم — بجيشه الا طرح الرأى فيها ، طالبا الى من حوله مشورتهم . ولعله فقط أصر على نواياه السلمية مخالفا مشورة أصحابه ، فى غزوة الحديبية وظهر فيما بعد ان الصلح الذى تمسك به . حقق نصرا سلميا للدعوة ، وكفل انتشار مبادئها فى هذه الفترة ، لذلك سماه المؤرخون الفتح الأكبر .

وفى بدر أراد ان يطمئن الى حسن استعداد جيشه للقتال فسألهم الرأى ، فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، حتى قال المقداد بن عمرو امض يا رسول الله ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فشكره رسول الله .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس ، يريد الأنصار ، لأن بيعتهم له كانت على أن يمنعوه ما دام فى ديارهم ، فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته الا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج ديارهم .

فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله : قال : أجل !!

فقال سعد : قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله ، لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله (١) .

---

(١) راجع الرازى : مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٥١٨ وعبد الرحمن عزام : بطل الأبطال ص ١٠٧ ، ١٠٨

بل ان القائد النبى فى هذه الغزوة بعد أن استشارهم فى مبدأ القتال ما سمح لنفسه أن يستقل باختيار أرض القتال ، فهو حين تأهب لخوض المعركة ، وعسكر بقواته فى أدنى ماء من بدر جاء الحباب بن المنذر اليه فقال : أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال : (بل هو الحرب والرأى والمكيدة) .

قال الحباب : يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نغور (نطمس) ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا ، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ، ولا يشربون . فأنفذ الرسول رأيه (١) .

وفى غزوه أحد قبل عليه السلام رأى الأغلبيه ، فى لقاء العدو خارج المدينة ، ولقد نفذ هذا الرأى متخليا عن وجهه نظره ، فيوم أحد — وهو فى معرض الرأى بين أصحابه — قال عليه الصلاة والسلام : « انى قد رأيت فى منامى بقرا تذبح حولى ، فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ، فأولته هزيمة ، ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينه ، فأولتها المدينه ، فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم(٢) » .

وبالرغم من فرار القوات التى حاربت فى غزوه أحد ، وهزمت ، الا أن القرآن طالب الرسول — صلى الله عليه وسلم — باستشارتهم مع العفو عنهم ، والاستغفار لهم « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر »(٣) . « أى دم على المشاورة ، وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب فى هذه الوقعة ، وان اخطأوا الرأى فيها ، فان الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل ، دون العمل برأى الرئيس ، وان كان صوابا ، لما فى ذلك من النفع فى مستقبل

---

(١) راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٤٢٠ ، واللواء الركن محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٧٣

(٢) الرازى : مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٥٩

(٣) آل عمران : ١٥٩

حكومتهم ، ان أقاموا هدا الركن العظيم ، المشاوره ، فان الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر(١) » .

والشورى بصفة عامة كانت مبدأ اجتماعيا أصيلا فى حيـاة المسلمين ، وقد امندحها القرآن لأنصار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « والذين اسنجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاه ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون(٢) » .

والقائد قبل ملاقاه العدو مسئول عن تطهير جيشه من عناصر الضعف والفتنة « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا (شرا وفسادا) ولأوضعوا خلالكم (ولسعوا بينكم بالنميمة ، وافساد ذات البين) يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين(٣) » .

ومسئوليات القياده العسكرية فى مفاهيم القـرآن لا يمكن أن تمارس من خلف خطوط القتال ، بعيدا عن أرض المعركة ، والا كانت جبنا أو أنانية .

فالقائد بين جنوده يعايشهم دوما فى التخطيط والتنفيـذ ، فى (الاستراتيجية والتكتيك(٤)) .

وفى غزوتى أحد وبدر تحدث القرآن عن القائد — صلاه الله وسلامه عليه — وهو يباشر مسئولياته بين جنوده فى دائره المفهوم العسكرى للفنيين السابقين « واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال (أنزلتهم مواضع القتال) والله سميع عليم »(٥) .

---

(١) السيد رشيد رضا : تفسير المنار ج ٤ ص ١٩٩

(٢) ٣٨ : الشورى

(٣) ٤٧ : التوبه

(٤) الاستراتيجيه : هى أسلوب تحريك القوات الى المعركه ، وادارة هـذه التحركات على الموقف العسكرى ، أما التكتيك فهو أسلوب استخدام القوات داخل المعركه ، وأثناء الاشتباك الفعلى مع العدو — أما التكتيكات الكبرى فهى تحريك وتجميع القوات فى ميدان المعركه نفسه تمهيدا لاستخدامها بطريقه حاسمة ضـد العدو : راجع طارق شرف : مدارس الفكر العسكرى عبر التاريخ — عن مجله الطليعه (أكتوبر سنة ١٩٦٨) .

(٥) ١٢١ . آل عمران

وقد كان هذا فى يوم أحد ، أما فى يوم بدر ممن الأوامر التى نمدها القائد وهو مع جنوده فى المعركه « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ... » (١) .

وتلك المسئوليات لا تحقق على أرض القتال نتائجها الباهره الا فى ظل المساواه ومحمد عليه السلام وهو القائد القدوه ساوى نفسه بأصحابه ، ففى المسيرة الى بدر قسم الابل ، وكانت سبعين بعيرا بين أصحابه ، وكان نصيبه منها مع على بن أبى طالب ، ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى بعيرا يتناوبه مع شريكيه كواحد من سواء جنوده .

ولقد قال له شريكاه هذان (نحن نمشى عنك) ، فقال لهما : (ما انتما بأقوى منى ، ولا انا بأغنى عن الأجر منكما) .

وفى غزوه الأحزاب شارك جنوده حفر الخندق بيديه ، وحمل مثلهم على عاتقه الأحجار والأتربة ، ويحدث عن ذلك البراء بن عازب فيقول : « كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه(٢) » .

وفى الخطر كان لا يساوى نفسه بجنوده بل يسبقهم اليه، ويسأثر به دونهم ، وفى ليلة فزع أهل المدينة من صوت مزعج سمعوه فخرجوا يستطلعون نبأه ، ولما بلغوا ظاهر المدينة وكادوا يتجمعون وجدوا رسول الله قد سبقهم ، واستطلع حقيقة الصوت لهم ، وعاد وهو راكب على حصان عريان ، ليس عليه سرج ، وسيفه معه وهو يقول للناس مهدئا : لن تراعوا ، لن تراعوا ..

ويحدث عنه على بن أبى طالب فيقول « كنا اذا حمى البأس (اشتد القتال) ، واحمرت الحدق (اشتد غضب المقاتلين) اتقينا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ برسول الله — عليه

---

(١) الأنفال : ٦٥

(٢) راجع الزعيم الركن محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٣٢٣

السلام — وهو اقربنا الى العدو — وكان من اشد الناس يومئذ بأســـا(١) .

وبعد فمن دأب القرآن أنه يقدم النظرية والمفهوم أما التطبيق والسلوك فهما لصاحب الرسالة — عليه السلام — ، ولأصحابه — رضوان الله عليهم أجمعين — .

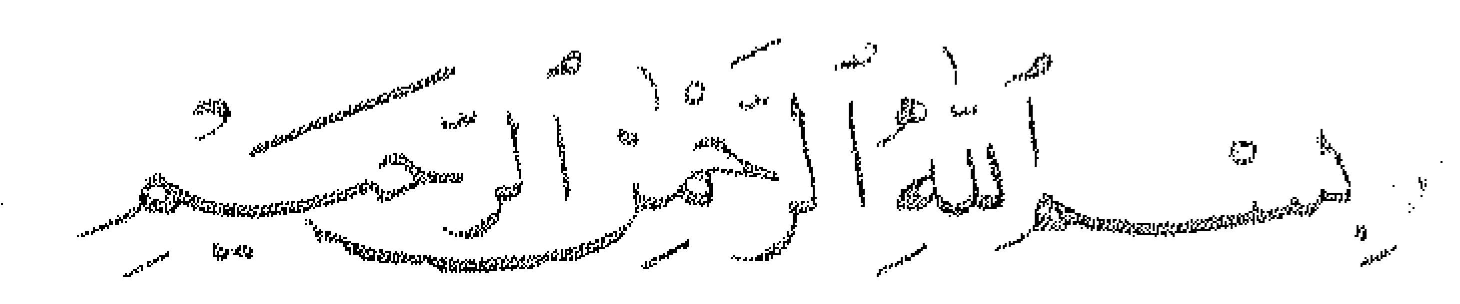
ولولا أن الحديث في هذا الباب ، وفي غيره قد رسم لنفسه منذ البداية أن يستظل بظل القرآن ، وأن يحيا في رعايته ، معطيا ما وفي اليه من مفاهيمه ، لنال من شرف سيرة القائد الرسول وصحابته بعد ما نال من شرف القرآن الشيء الكثير .

---

(١) دكتور احمد الشرباصي . الفداء في الاسلام ص ٦٢ وما بعدها .

مطابع الاهرام التجاريه

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/٥٢٢٨



الثمن ٥ قروش

